

سُوفَ عَيْدٍ

كَأَنَّهُ الْآنَ وَهَنَا

شَكَرًا مِنْ عَمْرِيَا



تقديم الأديب

جلال المخ

كأنه الآن وهنا

أو الإسم والمسمّى

شذرات من ذكريات

شوف عبيد

إستهلال

بقلم: جلال المخ

عاد الأديب والشاعر شوف عبيد إلى عالم النشر بقوة بداية من سنة 2017 التي أصدر فيها مجمل أعماله الشعرية في مجلد بعنوان "ديوان شوف عبيد" ونشر سنة 2019 كتاب "الضفة الثالثة قيسات من الشعر التونسي والعربي" وها هو يصدر سنة 2020 كتابا آخر عنوانه "كأنه الآن وهنا، شذرات من ذكريات".

وهذا العنوان يبعث على التساؤل، فما أو من هو المقصود بالاسم والمسمّى إذ أن كل اسم يدل على مسمّى وكل مسمّى يحمل أسما؟ وهل المسمّى هو الشاعر ذاته من خلال تجسيد الاسم له أم هو كل الشخصيات التي حواها الكتاب والتي لها أسماء تدل عليها كذلك؟

في خضم هذه التساؤلات نفتحم قراءة الأثر لتطالعنا في أول الأمر قصيدة يُبتدأ بها الكتاب وفي هذا مختلة يُسببها العنوان الفرعي "شذرات من ذكريات" الذي لا يدل على أن افتتاح العمل قد يكون شعريا. ولا يربكنا هذا القصيد الأول فحسب لأن القصائد تتالي في هذا الكتاب بعضها نثري وبعضها عمودي ومواضيعها وأغراضها مختلفة تنتقل بنا من التأملات الفلسفية والوجودية إلى التاريخ لبعض الأحداث وإلى رسم بعض البورتريهات لتشمل كذلك بعض الإخوانيات والشعر المناسباتي.

إن عدد هذه القصائد كان يمكن ببسر أن يكون مجموعة شعرية أخرى للشاعر شوف عبيد ذي الثلاث عشرة مجموعة شعرية أو تزيد، لكن المؤلف لم يرد لها ذلك المصير بل أقحمها ضمن عدّة أجناس كتابية أخرى تحوم حول السيرة الذاتية بالخصوص إلى جانب المذكرات والخواطر والشهادات بل والمقالات كذلك.

إن هذا التداخل الأجناسي الذي لا يحدث نشازا ولا نفورا في الكتاب على تعدده، إصرار من شوف عبيد على الكتابة في أجناس مختلفة ودليل على أنه أديب متمكن من الكتابة الأدبية شعرا وسردا ونقدا وهو يترجم موقفا كاملا من الكتابة عبر عنه في

إبداء رأيه في قضية كتابة الشعر النثري والعمودي في آن، فهو منفتح على الكتابة الشعرية بمختلف أنماطها، بل إن الشعر ذاته يمكن أن يتألف مع أجناس كتابية أخرى ليكسر بذلك الحواجز والحدود بين أشكال التعبير بل نراه يجمع بين الكتابة والفن التشكيلي في أحد أعماله السالفة في كتاب سابق عنوانه "ألوان على كلمات". وانفتاحه هذا جعله يقدم على نشر دواوينه كذلك لا ورقياً بل إلكترونياً ونقصد بذلك مجموعة "حارق البحر" المنشورة على شبكة الأنترنت عن طريق دار نشر إلكترونية سنة 2008.

وهذه القصائد في هذا الكتاب قد تُوِّلت وحدة مستقلة بذاتها وقد تنصهر في السياق العام للنص لتدخل في مراوحات لطيفة بين فقرات سردية، فنجد أنفسنا أمام نصوص نثرية تروي حكاية أو خبراً تعقبها مقاطع شعرية تساهم في تقدّم الأحداث وانسيابها، ويعتمد هذه الطريقة أي فقرة نصية ثم قصيد أو مقطع شعري في عشرات الصفحات من هذا المؤلف بإصرار يدلّ على إقتدار أدبي لدى الكاتب وتمكّن من وسائل الكتابة بأنواعها،

ولنعد إلى موضوع الاسم والمسمى لنجد تجسيدا له في الفصل الأول من الكتاب الذي يسمح ربه تقريبا وفيه بحث عن أصول اسم "سوف" ومعانيه بالعربية وبالإيماريجية واستعراض لمختلف المدن التي تحمل هذا الاسم ولعدد من الطرائف وقعت للشاعر في عدّة مناسبات بسبب هذا الاسم لا نريد ذكرها حتى لا تفسد على القارئ لذة مطالعتها واكتشافها من خلال قلم الكاتب الذي يكتب بأسلوب فيه كثير من البساطة والتشويق وخفة الروح التي تجعلك تنتقل من فقرة إلى أخرى أو من سرد إلى شعر وشعر إلى سرد بطريقة تجتذبك بلطف وتشدّك إلى النصّ شداً عجباً. ولا يفوته أن يتحدّث عن ظروف اختيار هذا الاسم وقرار إطلاقه عليه. ويصاحب الحديث عن الاسم كلاماً عن المسمى أي الشاعر الذي تقمّص شخصيّة السارد وانطلق يروي لنا الأحداث التي عاشها ذلك المسمى في طفولته الأولى مروراً بمراهقته وشبابه الأول ويصف لنا طريقة عيش أجداده وآبائه في البادية وتعلقهم بالأرض وقيم العمل والشرف وحبّ الحياة بكلّ بساطة ونقاوة سريرة. وقد اختار أن يروي الأحداث بضمير المتكلم المفرد كما فعل ميخائيل نعيمة في كتابته سيرته الذاتية "سبعون" وكما لم يفعل طه حسين في كتابه "الأيام" لمّا فضّل استخدام ضمير المفرد الغائب يتولى السرد ويستعرض الأحداث.

أمّا فصول الكتاب الأخرى فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة تجسّد بأكثر وضوحاً العنوان الفرعي "شذرات من ذكريات" وتبرّره بمنطق جليّ لأبّه مجموعة من الذكريات بتداخل فيها كالعادة النثر والشعر وتتعلق بمسميات لمعت أسماء أصحابها في عالم الإبداع والأدب والثقافة في تونس ويُعتبّر مرورها به محطات فارقة طبعته بسمات مميزة وأثرت فيه تأثيراً دائماً وضح أبعاده وأهدافه وحدّد معالمه ومفاهيمه.

ويمكن اعتبار اثنين منهما موضوعي الفصلين المواليين في الكتاب لأهميّة هاتين الشخصيتين وبروزهما في دنيا الأدب والثقافة واتسامهما بدور الرائد والمؤسسين زيادة إلى كونهما مثقفين عضوين أمناء بجدوى العمل الثقافي والجمعياتي ودورهما في تغيير المجتمعات وتطويرها والتقدّم بها نحو الأفضل. ولم يكتفيا بعملية الكتابة الإبداعية رغم أنّهما يعتبران من أكبر الأدباء الذين عرفتهم البلاد التونسية.

الشخصيّة الأولى التي يهتمّ بها الفصل الثاني تتعلق بالأستاذ محمد العروسي المطوي (1920-2009) أو "سي العروسي" كما يحلو لسوف تسميته حاضراً أو غائباً تقديراً وإجلالاً لقيّمته الإنسانية ومكانته الأدبية، فقد كان رئيس اتحاد الكتاب التونسيين ورئيس اتحاد الكتاب العرب وشغل عدّة مناصب دبلوماسية وتخرّج من الكلية الزيتونية ودّرس التاريخ والأدب وكتب وحقق المؤلفات التاريخية زيادة إلى تمّرسه

بالأدب بكلّ أنواعه إذ نظم الشعر وكتب القصّة والرواية وأدب الطّفّل واشتغل بالبحث والنقد واشتهر بالخطابة وطرق كلّ أنواع الأنشطة والمسؤوليات الثقافية. إن الأستاذ محمد العروسي المطوي علم في رأسه نار وإنجازاته ومؤلفاته الكثيرة المتنوعة معروفة ومحفوظة ومنتشرة تربّت على محتوياتها أجيال كاملة لذلك لم يعمد سوف عبید إلى التعريف به وإلى استعراض معلومات يعرفها الجميع بل جنح إلى تصوير العلاقة الشخصية التي كانت تربطه بذلك العلامة والحادثات التي وقعت له معه وما دار بينهما من أحاديث خاصّة ومن طرائف أو مواقف غير معروفة سمحت له بها الظروف الحسنة التي جعلته يلازمه في كثير من جلساته وأسفاره منذ نعومة أظفاره لتكون تلك التسجيلات التي علقته بذهنه إضاءات فعلية وإضافات حقيقية تزيدنا فهما وإدراكا لشخصية الرّجل ولمواقفه التي طابعها المعرفة والتواضع والإنسانية. ونشعر من خلال حديث الكاتب عن هذا الاسم الكبير والمسمّى الجليل بكثير من الاحترام والتقدير له وبشيء من الافتخار الذي جعله حسن طالعه يجنيه من تلك الملازمة لذلك كان في كتابته كثيرٌ من المتعة تنتقل إلى القارئ بيسر لأنها تتميز بالصدق والمحبة.

وبما أنّ سنة 2020 تصادف مائوية الأديب الكبير الذي احتفت به العديد من الجهات الثقافية فقد احتفل اتحاد الكتاب التونسيين بذكرى رئيسه الأسبق وأحد مؤسسيه وشارك سوف في هذا المحفل بمادّة هذا الفصل التي نشرها لاحقا في مجلة "المسار" الناطقة بلسان اتحاد الكتاب التونسيين.

ويعقب هذا العلم مباشرة علم آخر مثّل اسمه علامة في تاريخ الشعر التونسي الحديث وأورده الشاعر لاستعراض صفات هذا المسمّى وإظهار أهميته والإحاح على الجوانب الإبداعية في الشاعر والجوانب الإنسانية في الرّجل، ونعني به الأستاذ الشاعر الميداني بن صالح رئيس اتحاد الكتاب التونسيين كذلك وصاحب اثني عشر عملا شعرياً بوّأته تلك المكانة الخاصّة بين شعراء تونس. وقد أراد سوف عبيد مرّة أخرى أن يفاجئنا بما لا نتظر أو يخاتلنا فكان الفصل بأكمله قصيدة شعريّة مطوّلة تنتمي إلى قصائد النثر ويبلغ طولها مائة وأثني وتسعين سطرا بالتمام والكمال لتكون تقريبا أطول قصائد الشاعر ومعلقة شعريّة حديثة ونثريّة. وقد صدّرها بهذا الإهداء: "إلى الشاعر الميداني بن صالح استلهاما من مسيرته بمناسبة بلوغه السبعين من عمره وجعل لها عنوانا: "القرط القديم" إشارة إلى ديوان "قرط أمي" الذي شكّل صدوره منعرجا حاسما في تطوّر الشعر التونسي في القرن العشرين شكلا ومضمونا. وما كان باستطاعة سوف أن يكتب مثل هذا القصيد شبه الملحمي ويتوسّع فيه كلّ ذلك التوسّع لو لم يكن لزميله الكبير ودّا وإعجابا ولو لم يكن يعرفه جيّدا بحكم ملازمته له ومصاحبته ومشاركته نفس الرؤية في عدّة قضايا ومشكلات.

وهكذا خصّ المؤلف علمين كبيرين وأديبين هامّين ورئيسي اتحاد الكتاب بفصلين في هذا الكتاب جاء الفصل الأوّل نثرياً وكتبت كلّ أقسامه بعد وفاة المحتفى به بينما جاء الفصل الموالي شعريا وكتبت سطره المائتان في حياة المحتفى به بمناسبة عيد ميلاده.

أمّا ما اعتبرناه فصلا رابعا فيشمل باقي الكتاب ويتمثل في مجموعة من الذكريات والأحداث عاشها المؤلف مع عدد من رجال الثقافة والأدب مثل مصطفى الفيلالي ومحمّد البقلوطي ومحمّد الغزالي إلى جانب بعض القصائد المناسبة موجّهة إلى الأديب عبد المجيد يوسف والشاعر عبد الحكيم زربّر ومجموعة من القصائد الإخوانية تبودلت بينه وبين الشاعر الكبير نور الدين صمّود جاءت في شكل ملاطفات. ويخترق الحديث عن هذه الأسماء والمسمّيات بعض القصائد ذات المواضيع المختلفة وحديث عن رحلات قام بها المؤلف إلى باريس والجزائر وسوريا والعراق فيصف بعض معالمها وجوامعها وخاصّة مقاهيها، ويبرز دور المقهى في حياته وفي احتضان الأدباء

والمبدعين وأنشطتهم ليضيف إلى التداخل الأجناسي في هذا الكتاب جنسا آخر هو أدب الرحلة.

إنّ سوف عبيد متمرس بالكتابة خبر أسرارها وأغوارها كما خبر الحياة وحلب من الدهر أشطره وأنفق أكثر من خمسة عقود يعبر عن شغفه بالكتابة والكتاب والمثقفين وبخالطهم وبلازمهم ويتباحث معهم في شؤون الأدب والفرن. وقد جاء هذا الكتاب ليكون مرآة تعكس هذا الشغف وهذا الإمتاع وتعكس ولعه بشئى أجناس الكتابة وتقنياتها. وقد استخدم في تأليفه عدّة ملكات مثل الذاكرة والعاطفة والمخيّلة وعدد فيه الأسماء والمسميات ليبرز من وراء كلّ ذلك مسمّى كبير هو خلاصة كل هذه الحياة وهو الإبداع عموما والشعر خصوصا. وقد كتبه المؤلف ولسان حاله يقول متمثلا بالشاعر العربي القديم:

أثن على الشعر بآلائه وسمّه بأحسن أسمائه

حمام الأنف
17 جويلية 2020

النظارة

في داخلنا طفلٌ يبكي
لا يرى دموعه أحدُ
عُصصُ في صدورنا
تظللُ مَوُودَةً في أعماقنا
لا يسمعها أحدُ

*

في عيَاهبِ عُيوننا
إدُّ نُغمضُ جُفوتنا
تترأى لنا رُؤى
لو كشفناها
لن يُصدّقها أحدُ

*

مع ذلك
نبتسمُ
الدمعةُ في عُيوننا
تصمُتُ
الآهةُ في صدورنا
ثمّ نضعُ نظاراتِ سوداءِ
ونمضي
فلا يعرفنا أحدُ

الإسم والمُسَمَّى

تاريخ ميلاده غير ذلك الذي في دفاتره المدرسية والجامعية ولا حتى في أوراقه العسكرية والإدارية وليس ذاك المُسَجَّل في البطاقة الشخصية وفي جواز سفره تقول أمه إنها وضعت عند الحصاد ولم يكن والدُه حاضرًا وقتها فقد كان يعمل في تونس العاصمة... ذلك عهدٌ لم تكن الإدارة موجودةً ولا قريبة من - بئر الكرمة - القريب من بلد - عُمَراسين - حيث رُبوعُ أهله الممتدَّة على مدى البصر في الجنوب التونسي .

كان الثالث في المواليد

أخته - آسيا - هي الأولى وقد تُوقِّيت بعد شهور

أخوه - الحبيب - مات وقد قارب عامه الأوَّل

و شاء الله للمولود الثالث أن يعيش من بعدهما شهرًا حتى بلغ عامه الثاني وبعد أن تأكَّدت العائلة أن الموت لن يخطفه - مثل أخته وأخيه - قرَّرت بالإجماع تسميته باسم جدِّه فقصد أبوه يومَ السُّوق الأسبوعية شيخَ البلد وسجَّله في دفتره بتاريخ ذلك اليوم - وهو اليومُ السابع من الشهر الثامن من سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف - لذلك يرى لزوم ما لا يلزم أن يحتفل بعيد ميلاده الذي لم ينتبه له أحدٌ قبل بلوغه العشرين وشكرا على كل حال لمن يُهنئنه ويذكِّره بالمناسبة .

أمَّا اقتراحُ إسمه فقد اتَّخذه مجلسُ العائلة برئاسة الجدَّات اللواتي إتَّفقت بالإجماع أن يكون إسمُ الحفيد الأوَّل على إسم جدِّه وذلك على سُنَّة قومه وتقاليدهم منذ سابق الدَّهور جيلًا بعد جيل .

وحكاية إسمه... ما حكاية إسمه؟

تسمَّى على إسم جدِّه الذي تسمَّى على الفارس والشاعر الليبي - سُوف المحمودي - الذي ذاع صيته وقتذاك أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكلمة - سُوف - في اللغة العربية تعني الرَّمْل الرقيق اللين أما في اللغة الأمازيغية فهي تعني - الوادي - والكلمة هي إسم مدينة - وادي سُوف - في الجزائر وتعني كذلك اسم مدينة -

سُوف الجين - أي الوادي الكبير وهي تقع في جنوب ليبيا وثمة مدينة في بلاد الأردن قرب عَمَّان تُسمَّى أيضا - سُوف - وهي قائمة على وادٍ كذلك وقد زرَّتها برفقة الصديق

الشاعر يوسف رزوقة سنة 1992 بمناسبة مهرجان - جرش - فظهر من غدٍ في إحدى الصحف خبرٌ عن هذه الزيارة بعنوان - سُوف في سُوف -

ومن طرائف المواقف التي وجدْتُني فيها بسبب تُدرة إسمي أنه بينما كنت ضمن مجموعة من الشعراء والشاعرات العرب في أمسية شعرية أقامها أحد الأندية الثقافية على هامش مهرجان المربد بالعراق سنة 1986 إذ بمديرة الأمسية تقف على المنبر وترحب بنا ثم تفتِّح القراءات الشعرية داعية في البداية - شاعرة تونسية - تكريمًا للمغرب العربي ولتونس الخضراء قائلةً مرحبًا بالشاعرة التونسية الجميلة والأنيقة القادمة من بلاد الياسمين والزيتون بلاد أبي القاسم الشابي فتعجبتُ واستغربتُ حينها لأن المجموعة التي جئت معها إلى الأمسية لا شاعر ولا شاعرة فيها من تونس إلا أنا ثم أردفتُ قائلةً لتفضّل - الشاعرة سُوْف عُبَيْد - فإنطلقتِ الأَكُفُّ بالتصفيق الحارّ خاصةً من الشباب فتسمّرتُ في مكاني لحظةً ثم عزمت ووقفتُ وقصدتُ خطوةً خطوةً المنبر ووقفتُ وقد ظنّ الحاضرون أنني الشخصُ المكلفُ بتثبيت المِصْداح والعناية به وعندما مكثتُ برهةً واقفاً استثقلني الجمهور وأشار لي البعضُ بيده أن أنصرف بينما إشرأبتِ الأعناق باحثةً عن الشاعرة التونسية - الجميلة والأنيقة - فما كان منِّي إلا أن إقتربتُ أكثر من المِصْداح وقلتُ أهلاً بكم أنا هو - الشاعِرُ التونسيُّ سُوْف عُبَيْد - فاهتَرَّتِ القاعة الكبيرة والمكتظة بالصّحك والتّصفيق غير أنّ تصفيق الفتيات كان أقوى وأحرّ وأظهرن الشّماتة بالفتيان...وكانت أمسية..!!

———— الوكواك ————

(1)

ظَلَّتْ أُمّه في كل عيد إضحى تجمع له من الأقرباء سبع ألسنة ليأكلها على بركة الله مع الأمل أن تحلّ الألسنة السبع عُقدة لسانه ولكن وبعد أن عادت أعياد عديدة ثم مضت ولا جديدًا استسلمت الأم إلى القضاء والقدر يائسة حيناراجية أحياناً فما نفعت تلك الألسنة السبع لسان ولدها الوكواك بشيء

(2)

في حيّ الغُبار والشمس وعلى مشارف صحراء الجنوب يُخبىء الولد لسانه الثقيل عن الناس فلا يشارك في الكلام بينهم بل كان يكتفي بالبسمة مرة وبإشارة الرأس مرّة وبضرب الرّجل على الأرض تعبيرًا عن المكان القريب أو برفع اليد إلى الأمام مشيرًا بإصبعه كناية عن المكان البعيد... هكذا تعلم الولد الصمت والإنصات واستغنى بقليل الكلام اليسير عن كثيره العسير وآمن بالطبع أن البلاغة في الإيجاز فتجنّب - والحمد لله - عن الثثرة ورُبّ ضرة نافعة

(3)

وكان ذلك اليومُ العظيم وما أراك ما ذلك اليومُ ! يومُ الدّخول إلى المدرسة فزاد لسانُ الولد ثقلاً على ثقلِ وما هو يُرخرُحُه في فمه بين فكّيه يمينه ويسرةً وأسفل وأعلى فلا يقدر على الرّاء و الظاء والدال وقد يسدّ لسانه عليه الهواء إن هو حاول في الحلق إخراج القاف من الأعماق أمّا عندما تهّم به الباء أو الفاء فإنّ الدنيا تنسدُّ عليه تمامًا فلا يفتحها أمامه إلا البكاء يُطفيء به جمره في القلب

(4)

الولدُ الذي جلس في الشَّمس
ونام في المغارات
مزال يجلس في الصمت
يقف في القلق
يُراقب جيرانا مُشَقَّة
وحوافر مغللة
وفوارس مُثخنة
وهوارج... بلازغردة
فالولد حزين حزين
جفت بسمته
كالطين

(5)

مع سيلان أعوام العمر بالصبر والعذاب وبالمُجاهدة صارت الأبجدية سلسلة على لسانه... نعم إن سيزيف أوصل هذه المرّة الصخرة إلى القمة ولم تتدحرج كالعادة نحو السّفح فجرى الكلام على لسانه طيحا يدعوه فيستجيب له ولكنه اليوم حينما يسقط حرف من نصه أو حينما تحتجب جريدة من الجرائد أو حينما يُمنع كتاب من الكتب فإن تلك الحالة القديمة تعود إليه فيثقل لسانه كما كان وتتعسر الحروف وتضطرب في كلامه حتى يكاد يختنق فيتأكد أنه ليس وحده الذي لم يستطيع إبلاغ صوته.... نعم ليس وحده الكواك!؟

عُقدة اللسان

عندما كنت صبيًا بل إلى عهد قريب كنت لا أقدر على الكلام الطلق الذي يجري على ألسنة الناس مثلما يعبرون عمّا يريدون بيسر بلا عناء ولا ضيق وكنت ألقى - العذاب اللغوي - أنواعًا فهذه الحروف الحلقية تسد عليّ النفس حتى أقارب الإختناق وتلك الحروف اللسانية تجعل لساني ينزل ويصعد فلا ينطبق على الحنك أو على أعلى الفم أو بجانب الأسنان أما الحروف الشفوية فإنها تقف حجرة عثرة وتسد النطق بسبعة مفاتيح فإذا في الوجه تبدؤ سكرات الموت... أظلل أحاول وأحاول برغم الخجل وبرغم انتظار السامع و إشفاقه وإذا بالمعلم يقول لي مرّة أكتب المحفوظات أمامي عوض سردها تلك هي اللحظات الأولى التي إكتشفت فيها لذة مداعبة القصيدة على الورق حينما يعجز لساني عن النطق

لو أنني وجدت في بيتنا آلة موسيقية لكنت ربّما من العازفين أو الملحنين أو لو أنني صادفت من يوجهني إلى السينما لسلكت طريق الإخراج السينمائي ولكنني من عائلة بدوية يسري في عروقها البيان سواء كان ترتيلا للقرآن أو رواية للشعر الفصيح ودارجه وكان من حظّي أن إطلعت مبكرًا على النماذج الشعرية الجديدة فصادفت في نفسي هوى زاده تمكنا إقتناعي بوجهة نظر الداعين إلى الجديد أثناء المعارك الأدبية التي كانت رائجة في سيتينات القرن

العشرين فالظروف التاريخية التي عشتها هي التي جعلت مني من يحاول الابتكار وأن يسير في دروب جديدة لم يسلكها السائرون قبله
أني معنى للكلمة في عصر صار كل شيء فيه خاضعا لسلطان الإعلام الذي بإمكانه أن يجعل من الحبة قبة والذي يتجاهل مآسي شعوب بأكملها عندما يريد... أني إحساس للإنسان في عصر كل شيء فيه صار يخضع لقاعدة العرض والطلب وفي عصر يمكن السيطرة فيه حتى على الأنواق وعلى الأفكار وقل حتى على حركة التاريخ

أني معنى للقصيدة عندما يموت طفل إفريقي جوعا ويرزخ زنجي تحت الميز العنصري ؟
أني معنى للحرية وللسلام عندما يُقهر الناس في الفيتنام وفي أفغانستان تحت شعرات الإنسانية البراقة
أني معنى للأديان عندما تُرسل الآلاف إلى جبهات القتال لينتظرها الحتف بينما مفاتيح البلاستيك معلقة على صدورهم في انتظار أبواب الجنه
أني معنى لكل هذا وذاك سوى المعاناة
كان الشاعر العربي سيّد الناس في قبيلة
له الفرس والنّاقة وله الظباء في الصحارى وله أجمل النساء
كان الشاعر العربي سيّد الكلام لسانه سيفٌ إذا هجا وكلامه سحر إذا أحبّ وعلقم إن غضب
كان الشاعر العربي يرحل من قوم إلى قوم
ومن نجد إلى الشام
ومن القيروان إلى قرطبة
ومن غرناطة إلى بغداد
بدون جواز سفر
وبلا حرس حدود

واليوم... الشاعر العربي سجين لغة قديمة حسنة في قديمها ولكنها لا تستطيع تسمية ما يوجد في البيت العربي بالتفصيل والتدقيق.... فما بالك بما يوجد في الشارع وفي المصانع وفي المخابر ؟
اليوم... كيف يتفاعل الشاعر العربي مع عالم معاصر لا يسمي أغلب أشيائه المعاصرة ؟ من هنا ندخل عتبة بوابة الجديدة والقديم تلك العتبة التي توقف عندها كل الشعراء الكبار في تاريخنا من طرفة بن العبد إلى بدر شاكر السيّاب ألا وهي عتبة الوعي باللغة والذات والواقع. ذلك ان الوعي اللغوي يحدّد مجال استعمالك لها والوعي بالذات يمثّل مدى تجلّي بصماتك في قصائدك أما الوعي بالواقع فإنه يحدّد موقفك من تناقضاته وعليه فإن اللغة عندي كائن حيّ يولد ويموت يتطوّر ويتلاقح فهي إذن ليست من الثبات وهي ليست من القداسة إذا كان الثبات جمودا وقوالب إذا كانت القداسة تعني عدم طرح الأسئلة... أما الوعي بالذات فإنه الإنصات إلى خلجات النفس والامتلاء بتجارب الحياة صغيرها وكبيرها حقيرها وجليلها حتى تكون التجربة صادقة

أما الوعي بالواقع فإنه ينطلق من اعتبار الإنسان هو القيمة الاولى وهو القيمة الأخيرة
أين البدايات الأولى والتجارب القديمة للقصيدة العربية ؟
أين قصائد الشعراء الذين لم يدخلوا بلاطات المنافرة والغساسنة ودمشق وبغداد وحلب والمهدية وقرطبة ؟
أين الشعراء الذين لم يكتبوا إرضاء لقواعد مدرسة الكوفة أو البصرة ؟
أين الشعراء الذين شاركوا في ثورات الزنج وفي ثورات المدن العربية ضدّ الإسبان والأنقليز و الفرنسيين ؟
بعد هذه الأسئلة القليلة هل تُعتبر ذاكرة التاريخ سليمة ؟
أنا لست وحدي

أنا من جيل يكتوي بالهزائم ويترشّف كل صباح مرارتها في فنجان قهوة
أنا مع يمشون على خريطة عربية كل شيء فيها وحولها يدعو إلى طرح الأسئلة برغم كل القناعات الجاهزة
أنا من أحفاد تراث زاخر يبدور كما على ركام لكنّ نقط الإضاءة فيه عديدة وتحتاج إلى الكشف والدرس
أنا منفتح بدون إنبهار على الثقافات الإنسانية الأخرى فتقافتنا كانت في أهبى عصورها هاضمة للثقافات القديمة وتائقة إلى الفضاء الإنساني

إن هذا الطموح العارم لكتابة شعر يُعبّر عن أحوالنا في تجربتنا الحديثة ليس سهلا المنال لأن التخلّص من
ذاكرة ستة عشر قرنا أو أكثر يبدو أمرا يحتاج إلى جهد خارق للعادة فالفشل في محاولاتنا وارد أكثر من
تحقيق النجاح لأن تجاوز الموروث والسائد المتفشى صعب
هذا لا يعني أبدا التشكيك في قيمة إنجازات الشعر العربي القديم لأنه كان ممثلا لمعاناة الأجيال السابقة
ولكننا نؤمن أن الاشكال تتفاعل مع المضامين فلكل تجربة جديدة مضمون جديد وشكلها المناسب مع
الإستفادة من مكتسبات الماضي وتطوير الآلة الفنية ضمن التعبير عن خلجات هذا الواقع الجديد في
إضطرابه وفي هزاته وفي طموحاته وخيباته أيضا
أنا لست لإقطرة من بحر الشعر العربي فليس سهلا أن نكون شعراء بجانب طرفة بن العبد وعروة بن
الورد وأبي نواس والمتنبي والشابي وبدر السيّاب وغيرهم
لكن...ورغم كل شيء سنحاول... نعم سنحاول... لأننا نؤمن أنه في الإمكان أحسن ممّا كان
تونس 2000

_____ كلامُ العيون _____

رحمَ الله جدّي
كان لا يقرأ ولا يكتب
وَبُصِّلِي بالفاتحةِ
جَهْرًا
وبما تيسّر من الآيات سِرًّا
لم تكن لجدّي ساعةٌ
غيرَ أنّه كان يعرفُ وقتَ السّحور
بالنّجوم
وَيُقَرَّر صلاةَ الظّهر والعصر
بظلّ الجدار أو النّخلةِ
النّخلةُ التي إذا تحرّك جريدها
يعرفُ حالَ الطّقسِ مِنْ عَدِ
وإذا مرّ السّحابُ على حُوشنا
يرتو إلى الآفاق
فيعرفُ أينَ سينزلُ المطرُ
و من أخبار جدّي
أثّه إذا سكت
ثمّ نظر هُنا أو هناك
وحدها
جدّتي كانت تفهمُ
ما يقول...

أحفاذ البدو

(1)

كُنَّا بدوًا نسير طويلا تحت الشَّمس وتَأبُّط التَّلْغَة لنحافظ على لمعان جلدنا المديوغ
وللأقدام أن تتحمَّل عِوضًا عنها العثرة والشُّوكَة ولسعة العقرب. نعم كُنَّا بدوًا نأكل ما
حضر ونلبس ما ستر ونصبر على الجذب أعواما وتحمَّل العطش أيَّاما ننزل ونرحل
في أرض الله الواسعة ولا تَحْنِي رؤوسنا لأحد من البشر وقد يهلك الرَّجل منَّا ودونه
قطرة الماء الأخيرة يُؤثر بها رفيق الطريق!

(2)

نعم .. كُنَّا بدوا إذا تكلمنا صدقنا فالكلمة عندنا - وما أدراك ما الكلمة - نقول إنها
تخرج من الحلق كالرَّوح تماما فإذا وعدنا أنجزنا وإذا توعدنا فخذ حذرك!
ولكن لا خوف عليك ولا أنت تحزن إذا مررت على البدويِّ ضيفا فهو سيرحَّب بك
وسيهتف لك من بعيد على المدى ومن النظرة الأولى أهلا وسهلا ومرحبا
والجود بأحسن الموجود طيلة ثلاثة أيام!

(3)

أجدادنا البدو
كانوا يعرفون السَّاعة بانكسار الظلِّ
يعرفون الأرض المِعطاءَ بقبضة التُّراب
ويأتجاه البرق يعرفون المطرُ
وياقتفاء الأثرُ
يعرفون الذي مرَّ
أجدادنا البدو
كانوا يُؤرِّخون بعام الصَّابة
أو بعام الجراد
أو بعام الوباء
مُحمَّدٌ وعليُّ وعائشةُ
عندهم أحسنُ الأسماءِ
وليس في الدُّنيا عندهم أحبُّ
من الأولاد

والخيل
والنساء !

(4)

كُنَّا بدوًا نشتاق الى البحر فنتخيّل الأمواج والماء والأسماك بالوصف فنتصوّر الرّمال
مياها زرقاء كالسّماء تماما لكننا نقف حائرين عند تصور السفينة والسّمك وحدث مرّة
أن سافر جماعة من الأقارب الى البحر فحملوا معهم إلينا ماء البحر في بعض
الزّجاجات. كانت أعجب شيء عرفناه في صباننا فجعلنا نتذوّق الملوحة - العذبة - ذلك
أن البدويّ لا يشتاق الى ماء زمزم كاشتياقه الى ماء البحر فماء زمزم عنده بركة
وشفاء أمّا ماء البحر فهو شيء آخر يُثير الخيال والمستحيل!

(5)

نخلة في السّموخ
وجمل في الجلد
ذلك هو البدويّ

(6)

كُنَّا بدوًا...

في الأرض نصُول ونجول

السّماء السّابعة لم تكن أطول من أنف أقصرنا قامّة ولكنّه الرّمان يمضي ويأتي زمانُ
العمارات السّاهقة التي لا نملك فيها أرضا ولا سماءً

إنّه زمان المُدن القصديرية وزمان المخيّمات إنه زمان الهزائم والمسلسلات:
مسلسل التلفزيونات ومسلسل الإنشقاكات والخلافات العربية. نعم كُنَّا في زمن البداوة
حيث الشّهامة والعرة فدخلنا في زمن سجائر رُعاة البقر حيث التبعيّة والمذلة... إنّه
زمن التّشبيّه فلا شيء كما هو وكلّ شيء في محلّ نظر الى أن يأتي ما يُخالف ذلك !

_____ السّلاطين _____

في زَمَن بَوادِينَا القَدِيمِ
يُسَمِّي العَرِيسُ
سُلْطَانَا
يَخْتَارُ لَهُ وَزِيرًا
هُوَ الأَمْرُ النَّاهِي
العَارِفُ بِدَقَائِقِ الأُمُورِ

*

نَحْنُ الصَّغَارُ
نُهَيِّئُ الخِيْمَةَ
تَفْرِشُ الرَّرَابِيَّ وَالثَّمَارِقَ
وَتَهْبُ بِقِصَاعِ الكُوسِكِسِي
فِي نَشَاطٍ وَحُبُورِ
ثُمَّ نَمْضِي بِمَخَالِي الشَّعِيرِ إِلَى الخَيْلِ
الخَيْلُ أَيْضًا
لأَبَدٍ لَهَا مِنْ وَليْمَةٍ قَبْلَ العُرُوبِ

*

فِي زَمَن بَوادِينَا القَدِيمِ
نَتَرَقَّبُ لِحِظَةً يُطَلُّ السُّلْطَانُ مِنْ خِيْمَتِهِ
بِالْمِنْدِيلِ الأَحْمَرِ
إِنَّهُ - القَتْحُ المُبِينُ -
إِذْ تَتَسَارَعُ طَلْقَاتُ البَارُودِ
مَعَ قَرَعِ الطُّبُولِ
وَالزَّرْغَارِيدِ
فَتَمْتَلئُ جُيُوبُنَا بِالحَلْوَى
نَحْنُ السُّلَاطِينُ الصَّغَارُ

— بين الصَّبِّ وَالثُّعْبَانِ —

قَيْلُولَاتُ الصَّيْفِ فِي رُبُوعِ الجَنُوبِ طَوِيلَةٌ جَدًّا لَدَى الصَّبِيَّانِ، لَا تُجْدِي فِي تَقْصِيرِهَا
أَلْعَابُهُمْ تَلِكُ الَّتِي يَتَسَلَّوْنَ بِهَا وَيَسْتَنْبِطُونَهَا مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ وَمِنَ الطِّينِ وَحَتَّى مِنْ

الحجارة وكانوا ينتبذون الأمكنة ذات الظلال الثخينة سواء في الكهوف أو تحت الزياتين الوارفة لعلهم يظفرون بلفحة من التّسمات التي تَصَلُّ وَجْهَها نحوهم من حين إلى حين فتَهَبُّ برّدا عليهم وسلاما .

وَلِقَيْلُولَاتِ الصَّيْفِ فِي الْجَنُوبِ لِدَّةٍ وَأَيُّ لِدَّةٍ حِينَ نَتَخَيَّرُ أَجُودَ الثَّيْنِ الْيَانِعِ الَّذِي يَتَدَلَّى أَخْضَرَ وَأَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَأَسْوَدَ تَحْتَ أَوْرَاقِهِ الْخَضِرَاءِ الْكَبِيرَةِ فَنَقْطِفُ مَا نَشَاءُ بِالْهِنَاءِ وَالشَّفَاءِ، وَقَدْ تَخَطَّرَ عَلَى الْبَالِ نَزْوَةٌ مِنْ نَزَوَاتِ الصَّبَا فَنَشْتَهِي اللَّحْمَ فِي الْقَيْلُولَةِ وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلَ إِلَى اللَّحْمِ وَالشَّمْسُ كُرَةً جَمْرٌ وَمَا فِي مَدَى الْبَصْرِ إِلَّا الْأُودِيَّةُ بِصَخُورِهَا وَكُهُوفِهَا وَتَحْتَ الصَّخُورِ الْكَبِيرَةِ وَالصَّلْدَةِ وَفِي تَجَاوِيفِ الْمَغَارَاتِ يَاوِي الصَّبُّ بِأَلَيْتِهِ السَّمِينَةِ تَرَانَا نَتَرَصَّدُهُ وَنَرَقِبُ حَرَكَاتِهِ إِذْ نَلْمَحُهُ أحيانًا مُنْبَطِحًا عَلَى السَّفُوحِ الْحَجْرِيَّةِ عِنْدَ الْقَيْلُولَةِ فِي عَزِّ أَيَّامِ الصَّيْفِ الْوَهَّاجَةِ.

الصَّبُّ هُوَ تَمْسَاحٌ بَادِيَةُ الْجَنُوبِ وَلَعَلَّهُ يَنْحَدِرُ مِنْ سُلَالَةِ أَحْفَادِ التَّمَسَاحِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي عَاشَتْ فِي الْعَصُورِ الْقَدِيمَةِ الْغَابِرَةِ عِنْدَمَا كَانَ الْجَنُوبُ غَابَاتٍ وَأَنْهَارًا فَتَأَقْلَمُ مَعَ طَبِيعَةِ الْجَفَافِ لِذَلِكَ نَادِرًا مَا يَشْرَبُ الْمَاءَ مَكْتَفِيًا بِالْأَعْشَابِ غِذَاءً وَمَاءً وَهُوَ لَا يَتَجَاوَزُ الشُّبْرِينَ وَهُوَ أَلْيَةُ عَرِيضَةٌ طَوِيلَةٌ شُوكِيَّةٌ لَكِنِهَا مَمْتَلِئَةٌ لِحْمًا وَعِنْدَمَا يَشْعُرُ بِنَا وَنَحْنُ نَرَصَّدُهُ يُسَارِعُ إِلَى غَارِهِ بَيْنَ شَقُوقِ الصَّخْرِ أَوْ تَحْتِهَا وَإِذَا نَحْنُ تَرَصَّدْنَاهَا وَلَمْ نَلْمَحْ أَحَدًا مِنْهَا لَا نَظْلًا قَابِعِينَ قَانِعِينَ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ وَإِنَّمَا نَنْتَلِقُ سَاعِينَ حِفَاةً لَا نَبَالِي بِلِظَى الْحَجَارَةِ مُتَنَقِّلِينَ مِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ وَمِنْ كَهْفٍ إِلَى كَهْفٍ بَاحْثِينَ بِدَقَّةٍ عَنِ جُحُورِهَا حَيْثُ تَكْمُنُ وَالَّتِي عَلَيْنَا أَنْ نَنْحِنِي لِنُظَلَّ عَلَى كُلِّ جُحْرٍ أَوْ غَارٍ أَوْ أَخْدُودٍ لَعَلَّنَا نَلْمَحُ ضَبًّا فِيهِ وَلَنْ أُنْسَى أَبَدًا ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي لَمَحْتُ فِيهِ أَنَا وَابْنُ عَمِّي وَنَحْنُ فِي السَّابِعَةِ أَوْ الثَّامِنَةِ مِنَ الْعُمُرِ أَلْيَةُ ضَبِّ تَخْتَفِي سَرِيعًا دَاخِلَ جُحْرِهِ تَحْتَ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ فَأَسْرَعُ ابْنُ عَمِّي وَانْبَطَحَ وَأَمْسَكَ بِالذَّنْبِ لَكِنَّهُ لَمْ يُفْلِحْ فِي الْقَبْضِ عَلَيْهِ بِمِلءِ يَدِهِ وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لَيْسَ لَنَا مِنْ بُدٍّ إِلَّا أَنْ نَحْفَرَ بِالْقَضِيبِ الْحَدِيدِيِّ الشَّدِيدِ تَحْتَ الصَّخْرَةِ لِنُتَمَسِكَ بِالضَبِّ وَنَظْفِرَ بِهِ فَعَقَدْنَا الْعِزْمَ وَشَرَعْنَا فِي دَكِّ الْحِصْنِ الْحَصِينِ دَكًّا حَتَّى إِتْسَعَ الْجُحْرُ وَوَلَّاحَتْ لَنَا أَلْيَةُ لَمْ نَرِ أَكْبَرَ مِنْهَا فَفَرَحْنَا فَرَحًا شَدِيدًا بِالْغَنِيمَةِ وَمَدَدْتُ يَدِي دَاخِلَ الْجُحْرِ لِأَمْسِكَ بِالصَّيْدِ السَّمِينِ وَلَكِنْ... عِنْدَمَا لَمَسْتُ إِذْ لَمَسْتُ لَمْ أَشْعُرْ بِمَلْمَسِ أَلْيَةِ ضَبِّ حَشِينَةٍ وَإِنَّمَا شَعَرْتُ بِمَلْمَسِ دَنْبِ أَمْلَسَ قِيًّا وَبِلْتِي إِنَّهُ تُعْبَانُ وَلَا شَكَّ... تُعْبَانُ... وَلَكِنَّ ابْنَ عَمِّي لَمْ يَصِدَّقْنِي وَأَصْرَّ أَنَّهُ ضَبٌّ وَأَدْخَلَ يَدَهُ وَجَعَلَ يَسْحَبُهُ بِقُوَّةٍ رُوبِدًا رُوبِدًا وَهُوَ يَصِيحُ مَا أَكْبَرَ أَلْيَةَ هَذَا الضَّبِّ!!... ثُمَّ صَاحَ تُعْبَانُ تُعْبَانُ!... رَغْمَ ذَلِكَ ظَلَّ مُمَسِّكًا بِهِ وَيَجْذِبُهُ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَإِصْرَارٍ وَمَا كَادَ رَأْسُهُ يَبْدُو حَتَّى أَهْوَيْتُ عَلَيْهِ بِالْقَضِيبِ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ... عِنْدَمَا مَالَتِ الشَّمْسُ نَحْوَ الْغُرُوبِ جَلَسْنَا نَشْوِي ذَلِكَ التُّعْبَانَ عَلَى الْحَطَبِ وَالْحَجَارَةِ الْمَلْسَاءِ بَعْدَمَا قَطَعْنَا مِنْهُ الرَّأْسَ وَطَرَحْنَاهُ بَعِيدًا .

لَقَدْ أَكَلْنَا التُّعْبَانَ !...

فَمَا أَلَدَّهُ مِنْ لَحْمٍ يَذُوبُ كَالشَّهْدِ...!!

لوحة الكتف

أمِّي التي لم تقرأ
ولم تكتب أبداً
أفصح مني
تُسَمِّي يومَ الأربعاء
- إِرِيحَاء -

مرّة قلتُ لها
قُولي - أَرَبَعَاء -
فقلت

إِرِيحَاء... إِرِيحَاء
إنّه يومُ الرِّيح
والرَّحمة
رَحْمَاكِ يَا أُمِّي
*

كلَّ عام
في يومِ ثالثِ عيدِ الأَصْحِي
تأخذُ أمِّي لوحةَ كَتِفِ الشَّاةِ الأَيْمَنِ
تُقَلِّبُهَا وتُمرِّرُ عليها أناملَها وكَفَّهَا
ثمَّ تتأمَّلُ حُطوطَها وتتملَّأها
كأنَّها تتهجَّأها
*

تصمُّتُ بُرْهَةً
ثمَّ تبتسِّمُ وتقول
ثمَّةَ في العامِ المُقبِلِ - إن شاء اللهُ - الخَيْرُ والبركةُ
وستفرُّحُ مرَّتينِ
أو ثلاثاً
رُبَّما بكذا... أو كذا
وتصدِّقُ بُوءاتِ أمِّي...
*

في آخرِ سنةٍ
السَّنةِ التي فيها أمِّي رحلت
رأيتُ وَجْهَهَا مُكْفَهَرًا كما لم أرهُ مِنْ قَبْلُ

لم تبتسم ولم تتكلم
*

اليوم
اليوم فقط
بعدما مرّت سنوات وسنوات
من العمر
تذكرت أنني رأيت آنذاك تجويفاً
في وسط لوحة الكيف
رأيتها أمي - ولا شك -
تجويف القبر

كفّ الجناء

عندما عاد خالي الأكبر
من السوق
يركب جماراً
فرحت جدتي
وأسرعت إلى الماء والجناء
وضربت بكفّها
على ناصية الحمار الجديد
*

بعد صيفين أو ثلاثٍ
عاد خالي الأصغر من فرنسا
وما نزل من سيارته
حتى ضربت جدتي
زجاجها الأمامي
بكفّ الجناء
*

قالت جدتي وقتذاك
هذه أيضاً نركبها
وهي مثل الحمار
تسير على أربع...!

الحلبُ الأسمُرُ

كنتُ في أمسية ثقافية نظَّمتها جمعية ابن عرفة بتونس العاصمة بمناسبة الاحتفال بالتراث في جهة غُمَراسن وقد شاركتُ فيها جمعيات عديدة فبعصُّها عرض مختلف الأزياء التقليدية وبعضها قدَّم أصناف الأَطعمة وشرح طرق إعدادها ومكوّناتها وقد تخلَّل الأمسية حفلُ الطُّبَل قامت به أعرق فرقة في - غمراسن - بقيادة - الشَّيخ البغدادي - الذي وهو في عِقدِه التاسع ما يزال - إذا دَنَدن الطبل - سَرَى في مفاصله نشاط وخفَّة فتراه يرقص به ويطوف ويميل ويرفعه على رأسه حيناً ويتأرجح به ويدور به وهو يضرب بعصاه الكبيرة في يمينه وبالعُصَيَّة الثانية في شماله في تَمَوُّج إيقاعيٍّ لطيف خفيف حيناً وعنيف أحياناً فيُراوح بين الشَّجون العميقة الرّاسية في غياهب الوجدان وبين الإهتزازات القوية الطافحة على مُهجة النفس...

أعرف الشَّيخ البغدادي منذ طفولتي عندما كنت أرافق والدي إلى الأعراس فألاحظ طربه وتفاعله إنتشاءً مع دقّات الطبول وأنغام المزمارة على وقع الأغاني الوطنية الحماسية والأغاني الغزلية البدويّة... كان زمان...!

اليوم ألتقي الحاج البغدادي وقد عرفني عندما تفرَّس مليّاً في ملامحي فترخَّم على والدي... ما شاء الله على عَمِّ البغدادي وعلى صحَّته وعلى ذاكرته وفراسته... وبعدما إنتظمت الفرقة بزِيَّها الأحمر والأبيض والتي جميعُ عناصرها من أحفاده أعطى لهم الإشارة بالشُّروع فنقر الطُّبَل نقراتٍ خفيفةً وعلًا المزمارة عاليًا صادحا .

حينذاك... كان لابدّ وبعد كل وصلة من رشق بعض الأوراق المالية على رؤوس عناصر الفرقة تشجيعاً لهم وتكريماً وتلك من عادات الأفراح لدى أهل غمراسن الذين يعتبرون العائلات السُّمراء فُروعاً من عشائهم فالعلاقة بينهم قائمة على المودّة والتقدير - لا غير - بل إن بعض العائلات السُّمراء الإفريقية تحمل لقب بعض عائلات أهل غمراسن وتُقاسمها أملاكها العقارية أباً عن جدٍّ وتتآزر معها في الأفراح والأفراح

وبينما أنا أتابع الحفل في بهجة وإنشراح مع أفرادٍ من عائلتي وتلّي من الأصدقاء إذُ بحسناً سمرَاء مشرقة الوجه تقصدني مسرعةً فرحة وتحتضني بشوق قائلةً بصوت مرتفع أهلاً أهلاً بخالي سُوف ...!!! فتعجّب جميعُ من كان حولي ... نعم أنا خالها حقاً وبالتمام والكمال... فقد رضعْتُ مرّاتٍ ومرّاتٍ مع أمّها من صدر - أمّي فائزة - السُّمراء الإفريقيّة رحمها الله وتلك عادة عائلتي منذ أجيال...

ثرثرة

كُنَّا صِغَارًا
تَبَاهَى فِي عِيدِ الْفِطْرِ
بِجَدِيدِ ثِيَابِنَا
وَالْعَايِنَا
وَتَنْتَظِرُ عِيدَ الْأَصْحَى
لِنُفَاجِرَ بِالْقُرُونِ الْكَبِيرَةِ لَأَكْبَاشِنَا
وَبَسْدِيدِ تَطْجِهَا

*

كَبُرْنَا قَلِيلًا
صِرْنَا تَتَفَاخَرُ بِشُؤْبِعِرَاتِ
قُوقِ الشُّوَارِبِ
ثُمَّ مَرَقَتْ بِنَا السَّنَوَاتُ
فِي السَّنَوَاتِ
فَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ مَصَّتْ بِنَا الدُّنْيَا
حَتَّى رَأَيْنَا مَا رَأَيْنَا

وَعَزَانَا الشَّيْبُ
فَأَمْسَيْنَا تَفَخَّرُ بِأَبْنَائِنَا
وَعُدْنَا تَتَنَافَسُ فِي السَّبَاقِ

وَلَكِنْ

مَعَ الْأَحْفَادِ

*

عِنْدَمَا تَتَعَبُ
تَجْلِسُ بَيْنَهُمْ تُتَرْتِرُ... وَتُتَرْتِرُ
نُفَاجِرُ بِأَبَائِنَا وَالْأَجْدَادِ

كأثوا وكأثوا
وكأثوا في هذا البلد
رُبما

يأتي زمان
ولا يدكرنا أحد

— أول أمسية شعرية —

في آخر أيام الربيع من سنة 1969 كنت أستمع إلى الإعلانات التي كانت تبثها الإذاعة التونسية وقتذاك فشدّ إنتباهي بلاغُ اللجنة الثقافية بصاحبة أريانة التي أعلنت أنها ستتنظم أمسية شعرية بمناسبة مهرجان الورد وتدعو من يرغب في المشاركة أن يرسل قصيدتين إليها .

لست أدري كيف عقدت العزم وأرسلت أربع قصائد وقرّرت الحضور حتى وإن لم أشارك في الأمسية فمساء الجمعة مناسب لأنه خال من الدروس وضاحية أريانة قريبة والفصل ربيع وهي مناسبة لاكتشاف أجواء الأمسيات الشعرية التي لم تكن منتشرة في ذلك العهد .

وكم كانت المفاجأة كبرى بعد أسبوع تقريبا عندما عدتُ من معهد ابن شرف عند منتصف النهار فوجدت رسالة من اللجنة الثقافية تحمل اسمي مسبوقا بالشاعر... كانت وماتزال وحتى بعد انقضاء نصف قرن تُمثل ذكرى من أجمل ذكرياتي التي تبعث في وجداني شعور البهجة والغبطة...

قبل ساعة كنت أجلس في قاعة كبيرة لعلها قاعة البلدية منتحيا مكانا جانبيا وأخذت أراجع نصوص القصائد متتبئا من حركات وأواخر الكلمات خاصة وعندما رفعت بصري وُجّلت به يمنا ويسرة وجدت أغلب كراسي القاعة قد امتلأت بالحاضرين وقتها تملّكتني رهبة لم أشعر بها من قبل أبدا وبعد برهة صعد إلى المنصة الشعراء وأذكر من بينهم خاصة أحمد اللغماني والميداني بن صالح ومُحي الدين خريف وعندما أخذوا أماكنهم نادى رئيس اللجنة الثقافية على إسمي وعلى الشاعر سُويلمي بوجمعة راجيا منا إن كنا حاضرين أن نصعد بجانبهم إلى المنصة .

ما أعظمها من فرحة وما أروعها من شعور بالارتياح أن يُنادى على إسمي مسبوقا - بالشاعر - ثم أن أجلس على المنصة مع صف الشعراء الكبار الذين كنت أقرأ لهم وأستمع إلى بعضهم في الإذاعة وكم كانت فرحتي عارمة عندما بدأت الأمسية بنا إذ افتتحها سُويلمي بوجمعة بقصيدتين وما زلت أذكر طريقة أدائه بنبرة شجية خافتة نالت إعجاب الحاضرين ثم تقدمتُ إثره إلى المصدح فوقفْتُ أقرأ قصيدتي الأولى من دون النظر إلى الورقة أما القصيدة الثانية فقد شدتني ورفقتها أكثر وأذكر أن الشاعر أحمد

اللغماني قد أبدى ارتياحا خاصة للسلامة اللغوية والعروضية وشجّعنا أن نكتب بروح
تفاؤلية أكثر نظرا لأننا في مرحلة الشباب وكذلك لأننا في مهرجان الورد وفي فصل
الربيع وأبدى إحترازه بل رفضه لقصيدي الثاني لأنه خال من الوزن العروضي ولم
يعتبره شعرا أصلا فالتجديد حسب رأيه لا يكون إلا ضمن إيقاع التفعيلة والقافية لكنّ
الشاعر الميداني بن صالح قد عبّر لنا في كلمته عن إرتياحه للمواضيع التي تناولناها
بما فيها من طرق للقضايا الإجتماعية والوجدانية.
قبل هذه الأمسية كنت أرسل نصوصي إلى الأديبة حياة بالشيخ التي كنت أقرأ لها في
صحف ومجلات ذلك العهد وقد كان أخوها فيصل بالشيخ زميلي وصديقي منذ أن كنا
ندرس بمعهد الصادقية فكنت أسلمه نصوصي فتقرأها وتسجّل ملاحظاتها بدقة وعناية
وأذكر أنني عندما إلتقيت بها سنة 1972 بنادي القصة في مكتب الأديب محمد
العروسي المطوي أبدت لها شكري وتقديري وأثنت على ملاحظاتها المفيدة .
تحيّة شكر وعرفان ووفاء لكل الشعراء والأدباء والأساتذة والصّحفيين ولجميع الذين
أخذوا بيدي وشجّعوني وفتحوا أمامي مختلف المجالات الأدبية والثقافية.
فما أكثر ما أخذتُ وما أقلّ ما أعطيت....

— أوّل ما نشرتُ — - جدران -

الحياة غرفة ظلام
الإنسان لا يستطيع أن يرى في الظلام.
أمشي في غرفتي بدون عينين تدفعان الظلام
لابدّ أن اصطدم بما في غرفتي
إصطدمت في حياتي بأشياء
أشياء مختلفة من حيث تأثيرها في نفسي
أوّل ما أستذكر أنني عندما كنت ألعب الغميضة مع الصبيان اصطدمت بجدار فأصيب
رأسي بجرح خفيف
ضحك الصّبيان ضحكا طويلا... الجدار الذي إصطدمت به لبنائهُ نائثة...
الجدران تسجّن ما نسمّيهم مجرمين...
الجدران تتكوّن منها المدينة
نحن نعيش بين الجدران

الجدار يفصل الفضاء

الجدار يفصل الجائع عن الرغيف

كل الناس يعملون من أجل الرغيف في بادئ الأمر فإذا تحصلوا على الرغيف تجاوزوه إلى أشياء أخرى فحياة الإنسان كلها جدران..

إلى أن يصل إلى جدار قويّ فيظلّ يصطدم به مرّات ومرّات حتى تسقط عليه كينة منه فيموت.

الجدار الأخير أقوى من الإنسان الذي لا يعلم أن مصيره سينتهي إذا أراد تجاوز هذا الجدار

الإنسان يريد تجاوز كل شيء.

الإنسان لا يهتمّ باشتعال الضوء الأحمر الذي على الجدار إنه جدار الموت.

الإنسان لا يهتم بالخطر،

الإنسان يتحدّى جدار الموت،

ولكنّ جدار الموت يتحدّاه، جدار الموت يقول لنا إنّني قويّ، أقوى منكم جميعاً، إنه يجذبنا إليه فنطاوعه ونظل نناطحه حتى يتسرّب إلينا الإعياء، فنموت...

الإنسان ينتهي مصيره على جدار الموت القويّ الذي يأبى أن يتهدّم جدار الموت يأبى أن يفنى.

الفناء هو ما حدث في هيروشيما منذ سنين وإستنكر الإنسان أينما وُجد، هذه (الجريمة) قام بالمظاهرات وعلت الأصوات، وكتب في الجرائد بحروف سوداء بارزة، ولكن لم يجد نفعا، السلاح ظل ممنوعاً منذ القدم - وبالرغم من ذلك فهو موجود، إنه موجود إلى الآن، السلاح يتطور بتطور الانسان.

الموت يتطور بتطور الانسان وتأكّد الإنسان من ذلك اليوم أن حياته في خطر، أصبح لا يعرف عن غده شيئاً، وضع في حُجرة مظلمة ليمشي وكلّما خاف أن يصطدم بشيء، لعله كرسي، لعله منضدة أو سرير ولعله يصطدم بجدار الغرفة، إنه لا يعرف ماذا سيحدث عندما يتقدم أو يتأخر ولا يستطيع أن يقف مشلول الحركات ليضمن لنفسه النجاة.

الغرفة مظلمة،

الغرفة تتلاعب بها الأمواج،

الإنسان لا يستطيع الثبات فوقها،

الظلام يحجب عينيه فلا يرى موضع قدميه

يظل يتعثر ويتعثر
حتى يصطدم بالحدار...

جريدة الصّباح - تونس - 6 - 12 - 1970

— سبي العروسي —

محمد العروسي المطوي 1920م - 2005م

- 1 -

هذا الأديب التونسي الكبير الذي يُمثّل أحسن ما يكون مقولة - الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف - فقد خاض قلمه غمار الشّعْر والقصة والرّواية والسّيرة والتّقْد والتّحقيق إلى جانب المقالة والخطابة والمحاضرة في النوادي والندوات والجمعيات وفي الإذاعة وفي المحافل وغيرها من المناسبات ممّا جعل مدوّنة المطوي متعدّدة المواضيع متنوّعة الأجناس والمشاعل فهو يمثّل الأديب الشامل الجامع بل وله قَصَب السّبق في بعض نواحي الإبتكار والتجديد سواء في الشّعْر أو في السّرد. إلى جانب ذلك الرّصيد الثريّ من الأعمال الأدبية فإنّ لمحمد العروسي المطوي إسهامات واضحة في الحياة العامة الإجماعية منها والسياسية إضافة إلى قيامه بتدريس التاريخ والأدب سنوات عديدة لطلبة جامع الزيتونة خاض بعدها إثر إستقلال تونس المجال الدبلوماسي فجميع هذه النواحي جعلت منه شخصية متميّزة كنث محظوظا بالإقتراب منها في مناسبات وفترات مختلفة وعديدة منها الخاصة والعامة ضمن النشاط الثقافي وكم كنت سعيدا بمرافقة سبي العروسي في الجِلّ والتّرحال إلى بعض البلدان فأنيست بطيب مَحْتَدِه وعِشْرته وتَهلت من معرفته وخبرته وإهتديت أحيانا ببعض مواقفه منذ عهد شبابي الأوّل إلى أن شاب رأسي وإلى سنوات - سبي العروسي - الأخيرة -. سبي

العروسي - كذلك كنت أسميه سواء عند حضوره أو في غيابه و - سي - هذه أعتبرها عنوان التقدير والإجلال وأتحدّث بها - إلى وعن - أساتذتي الكبار مثل سيدي البشير العربي وصالح القرمادي وتوفيق بكار ومنجي الشّملي ومحمد البعلاوي وسعد غراب وغيرهم أولئك الذين أدين لهم بالكثير من وطابي الأدبي .

- 2 -

أول ما لقيت سي العروسي كان في النادي الثقافي أبي القاسم الشّبابي بضاحية الوردية وهو النادي الذي تأسّس مع جملة من النوادي الثقافية التي أنشئت عند مطلع ستينيات القرن العشرين ومن بينها النادي الثقافي الطاهر الحدّاد الذي كان مقرّه في مدخل حديقة البلفدير ثم تحوّل إلى المدينة العتيقة في أوائل السبعينيات والنادي الثقافي علي البلهوان في شارع فلسطين وكان نادي أبي القاسم الشّبابي مقصد الكثير من الأدباء والمثقفين التونسيين والعرب فذهبت إليه مع جملة من التلاميذ مرافقين أستاذنا سي البشير العربي الذي كان يدرّسنا العربيّة في معهد الصّادقية في ما أذكر سنة 1968 ومن حينذاك صرت أتردّد على المكتبة الثريّة في النادي الثقافي أبي القاسم الشّبابي وأحضر كلّما تسنّى لي ذلك في مناسباته الأدبية وشيئا فشيئا صرّت قريبا من سي العروسي خاصة بعد أن أصبحت طالبا بكلية الآداب بتونس ففي سنة 1973 إنعقد بتونس أول مؤتمر للأدباء العرب مع مهرجان الشعر العربي وكانت بعض الأمسيات الشعرية تنتظم بدار الثقافة ابن رشيق والأبواب محروسة بالشرطة فلا يسمح بالدخول إلا بالدعوات الخاصة فكنت من ثلّة من الأدباء الشّباب والطلبة الذين اجتمعوا محتجّين أمام دار الثقافة فإذا بنا نرى سي العروسي وسي الميداني بن صالح يخرجان من داخل القاعة ويسمحان لنا بالدخول ومتابعة الأمسية من الطابق الأول .

حدّثني سي العروسي مرّات عن دراسته في جامع الزّيتونة وعمّا كان يعانيه الطلبة من شظف العيش إذ لم يكن طعامهم أحيانا إلا حفنة من بسيسة القمح والشّعير يعجنونها بالماء فقد عاشوا سنوات صنكة على وجبات نزر قليل من الثّمر أو من الثّين المجفّف أو الزّيت والزّيتون والهريسة فكانوا في الشّتاء يتقاسمون في اليوم صحفة لبلابي ساخنة ما فيها إلا حبّات حمص ومرق .

وذكر مرّة أنه عندما كان داخلا من باب جامع الزيتونة إذ هبّت ريح قويّة خلفه رفعت طرقيّ برنسه عاليا فرآه شيخه على تلك الحال فقال له مازحًا - الحمد لله يا عروسي ... لو لم تكن المَطويّ لطيرتُك الرّيح !!

من مواقف سي العروسي المطوي الوطنية الغير معروفة وذلك لتواضعه ولصُمور النزعة الأنانية لديه أذكر أنه كان من جملة المثقفين التونسيين الذين شجّعوا الشّباب ودفعوهم إلى التطوّع في حرب فلسطين سنة 1948 وعندما كان سي العروسي سفير تونس بالعراق نالت الكويت إستقلالها عن بريطانيا فإعترفت تونس بذلك الإستقلال لكنّ حكومة العراق وقتذاك إعترضت عليه لأنها إعتبرت أن الكويت تابعة للعراق ممّا أوقع خلافا سياسيا كبيرا بين الرئيس الحبيب بورقيبة والرئيس العراقي عبد الكريم قاسم وقد وجد حينذاك سي العروسي إغراءات كبيرة ليخالف موقف بلاده ويبقى في بغداد مُعزّزا مُكّرّما لكنه لم يستجب وعاد إلى تونس منشغلا بالحياة الثقافية وصار نائبا عن ولاية قابس في البرلمان ضمن لجنة التربية والثقافة وساهم في الإذاعة الوطنية التونسية ببرنامج خصّصه لمختلف مراحل تاريخ تونس وعصورها وكان الرئيس بورقيبة حريصا على الإستماع إليه وحتّى عندما لا يتمكن من ذلك مباشرة فإنّ مدير الإذاعة كان يرسل إليه ما فات من الحلقات مسجّلة ووصل البرنامج إلى الحديث عن الدولة الحفصية فاتصل بورقيبة بسي العروسي ملاحظا له أنه قد أطنب وفضّل القول كثيرا في التاريخ وأنه أبطأ في الحديث عن تاريخ الحركة الوطنية وإبراز تفاصيل نضال الرّئيس فكان جواب سي العروسي أن التاريخ يجب أن يكون متسلسلا لذلك لا يمكنه أن يتجاوز العصور ويقفز على الأحداث بسرعة وأنه سيصل إلى ذكر تاريخ تونس المعاصر لا محالة وسيذكر - الزعيم المجاهد الأكبر - بورقيبة - إلا أنه يبدو أن الرئيس كان يريد العجلة في الحديث عنه فلم يتواصل البرنامج بعد تلك المكالمة .

أذكر مرّة أنّي كنتُ جالسا معه في إحدى المقاهي بالعاصمة تونس وعندما أقبل النّادل بالطّبّق ووضع أمامه الفنجان قال له - تفضّل يا سي العروسي - وعندما تحدّثنا وهَمَمْنَا بالإنصراف بادر سي العروسي بنقد النادل ورقةً من فئة الخمسة دنانير راجيا منه بلطف أن يترك الباقي لديه وعندما غادرنا المقهى قلت لسي العروسي إنّ النادل كان يرضى وابتهج بما يتبقّى له من دينار واحد على أساس أن القهوتين معًا لا لايتجاوز ثمنهما نصف الدينار ! فما كان منه إلا أن قال لي - يجب أن أكرمه لأنه عرفني وقال لي - سي العروسي

وهو لئن بدا على غاية من الكرم في هذا الموقف فإنه على عكس ذلك في موقف آخر عندما يطلب أحدنا منه ورقة ونحن في جلسة بإتحاد الكتاب التونسيين أو في النادي الثقافي أبي القاسم الشّابي فإنه يأخذ ورقة ويقسمها نصفين أو على أربع ويقول إن تلك تكفي لكتابة ملاحظات أو أسئلة فسأله أحدهم - مُمازحا - لماذا هذا التقدير وأراد إستفزازَه بحضورنا فكان ردّ سي العروسي أنّ حسن التصرّف في المال العام واجب وأنّ نصف ورقة أو ربعها كاف لكتابة بعض السطور الضرورية أما من يريد كتابة قصة أو رواية أو ديوان أثناء الإجماع فما عليه إلا أن يحضر معه كراسًا ! ذاك زمن...

- 5 -

عندما حضرت لأول مرة مؤتمر اتحاد الكتاب التونسيين في آخر سنة 1981 بدار الثقافة ابن خلدون كان عدد المؤتمرين من الأدباء لا يتجاوز الثمانين ودام المؤتمر يوما واحدا وكان الغداء - شاطرا ومشطورا - وبينهما هريسة وبعض القنقعات من التّن أو السّردين وقطرات رذاذ من الزيت لا غير وكنا سعداء ولم نبال لأننا عقدنا مؤتمر الاتحاد وأصدرنا بيانا يتضمن المطالبة بحرية الكلمة وبدعم نشر الكتاب وتوزيعه وتضمين التعليم في جميع مراحلَه قدرًا أكبر من الأدب التونسي وفتح فروع للاتحاد في مختلف ولايات البلاد والتفكير في إنشاء مجلة خاصة تصدر عن الإتحاد والعمل على ترجمة مختارات للأدباء التونسيين المعاصرين فكان المؤتمر نقلة نوعية في تاريخه ثم بعد أن تولّى الأستاذ محمد مزالي الوزارة الأولى إستقال من رئاسة الاتحاد وخلفه نائبه سي العروسي وانتقل مقر الاتحاد من مكتب صغير في دار الثقافة باب العسل إلى مقره الحالي بجانب المعهد العالي للموسيقى ودار الثقافة ابن رشيق في قلب تونس العاصمة وهو مقرّ محترم وكان حلما للأدباء المؤسسين ويعود الفضل الأكبر لاكتساب هذا المقرّ وهو من أملاك الدولة إلى مسعى الأستاذ بشير بن سلامة وزير الثقافة في حكومة مزالي وبِحرصٍ كبير من الأدباء محمد العروسي المطوي ومحمد المرزوقي والجيلاني بالحاج يحي وغيرهم...

ويانتقال إتحاد الكتاب إلى مقرّه الحالي 20 شارع باريس وبِرياسة سي العروسي إنطلق في طور جديد وذلك بإنشاء عديد النوادي والفروع وإصدار مجلة - المسار -

- 6 -

في آخر سنة 1989 بدأ الإستعدادات لعقد المؤتمر فطلب منّي سي العروسي ذات يوم بعد إنتهاء جلسة أحد النوادي أن آتي إلى الإتحاد من غدٍ باكرا لمراجعة بعض مواد مجلة المسار قبل طبعها فذهبت من غدٍ ولكن لم يُسلمني ملفّ المجلة بل مدّ لي رسالة من إتحاد أدباء العراق والثانية وكانت بالفرنسية من المعهد العربي بباريس وقال لي هل بإمكانك الإجابة عنهما مضمّنا موافقة إتحادنا على ما فيهما فقلت له - حسنا ولكن هذه مهمّة الكاتب العام سي مصطفى الفارسي - فقال لي إنه منشغل بمسؤوليته في إتحاد كتّاب إفريقيا وآسيا والأخ مصطفى لا ينوي أن يكون في الهيئة المديرية القادمة ثم أردف قائلا بشيء من الحزم - إنّ إتحادنا في حاجة إلى كلّ أعضائه - وسلمني ورقتين فأخذتهما مع الرسالتين وإنصرفت إلى المكتبة لأردّ عليهما وما كادت نصف ساعة تمضي حتى رأيت سي العروسي يدخل المكتبة قائلا هل أتممت ؟ فقلت - نعم وسلمته الإجابة عن الرسالتين الأولى بالعربية طبعا والثانية بالفرنسية ورافقه إلى مكتبه فجلس وقراهما ثم أبدى إنشراحه وقال لي مبتسما - ما قصّرتش يعطيك الصّحة - فشعرت كأنني نجحت في الإمتحان فسي العروسي حريص على الدقة وحسن ضبط الكلمات وتنسيق الفقرات مع مراعاة بروتوكولات المقام والمناسبة وقد علّمت كل ذلك من خلال إملأته وملاحظاته عندما كنت أراجع معه بعض المراسلات... وأمر لي بقهوة ثمّ مال بالحديث إلى شؤون المجلة فإذا به يأخذ ورقة صغيرة ويكتب فيها بقلم الحبر ويمدّها إليّ كالسيرّ دون أن ينبس بأيّ كلمة فأخذتها كالوديعة وقرأت ما فيها....جملة واحدة فقط هي :

- الترشّح إلى الهيئة المديرية -

وبدون تردّد وبسرور كبير قلت له - نعم... ولكن بشرط أن أكون معك يا سي العروسي !

وكان المؤتمر في آخر ديسمبر 1989 بدار الثقافة ابن خلدون وبعد الإلتخاب كان نصيبي أكبر الأصوات وتولّى سي العروسي الرّئاسة وسي الميداني بن صالح نائبه والأخ محمد العاشمي بلوزة تولّى أمانة المال والأخ جلّول عزونة تولّى مسؤولية العلاقات الخارجية أما الكتاية العامة للإتحاد فكانت مسؤوليتي وضمّت الهيئة أيضا الأدباء أبا زيان السّعدي وسمير العيادي وعبد الحميد خريّف والطيب الفقيه ونور الدين بن بلقاسم والتابعي الأخضر فحاولنا قدر المستطاع الإضافة والعمل على تحسين منزلة إتحاد الكتّاب التونسيين وإشعاعه سواء داخل البلاد أو خارجها فقد ضمّ الإتحاد في تلك السنوات العدد الأكبر من الأدباء والشعراء والجامعيين على توالي أجيالهم واختلاف قناعاتهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية وعلى تنوّع ألوانهم الأدبية

والفنيّة وتعدّدها وقد تولّى أيضا إتحادنا رئاسة الإتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب فأصبح سيّ العروسي رئيسه في ظروف خلافت عربية حادّة إبان حرب الخليج كادت تعصف بالإتحاد أيضا .

من كان يظنّ أنّ ذلك الشّاعر الشّابّ الواقف مع جمّع من الأدباء الشّبّان وقد مُنعوا من دخول الأمسيات الشعرية عندما إنتظمت بمناسبة مهرجان الشّعري العربي بتونس سنة 1973 سيكون من بين الفاعلين في تنظيم ذلك المهرجان سنة 1991

ما كنتُ أحسب يوما أنّي سأكتب البعض من هذه الذكريات بما فيها من معاناة وتحديات ولكن ما أمتعها...!

رحم الله سيّ العروسي !

————— القُرط القديم —————

إلى الشّاعر الميداني بن صالح إستلهامًا من مسيرته بمناسبة بلوغه السّبعين من عمره

هِيَ زِي خُطَاهُ
تُوصِلُنِي إِلَى مَشَاهِدِهِ الْقَدِيمَةِ
وَقَفْتُ أَمَامَ الْبُؤَابَاتِ
صَلْدُهُ ذَاتِ الصَّخْرِ
عَلَى هَبَاءِ الْأَقْوَاسِ
مِنْ أَعْمِدَةِ الْمَرْمَرِ قُدَّتْ
قَرَأْتُ تَقْيِيسَتَهُ : الْأِسْمَ وَالْعُنْوَانَ
حَمَلْتُ زَادِي... وَأَصَلْتُ الطَّرِيقَ
عِنْدَ كُلِّ فَرْسَخٍ أَسْأَلُ عَنْهُ
تَفْسُ مَا يُقَالُ وَمَا قِيلَ
كَانَ قَدْ مَكَتَ هُنَا قَلِيلًا
ثُمَّ سَبَّاقَهُ السَّفَرُ نَحْوَ الْبَعِيدِ
تُرَى أَيْنَ أَلْقَاهُ هُوَ الرَّاجِلُ دَائِمًا
مِنْ بِيَدِي إِلَى بِيَدِ
*

هِيَ زِي خُطَاهُ
ضَارِبَةٌ فِي تَنَائِي الْقَفْرِ عِنْدَ السَّبَاسِ
عَلَى مَدَى الْبَصْرِ

خُطَاهُ
قَارِعَةٌ رَصِيفَ الْمُدُنِ مِنْ شَرْقٍ
إِلَى غَرْبٍ
مِنْ غُرُوبٍ إِلَى شُرُوقٍ
كَلِمَا سَدَّهَ خَيْطٌ
أَوْ انْقَطَعَ وَتَرَ
عَجَلَ بِالرَّحِيلِ
إِذْ تَصَغُرُ حَوْلَهُ السَّاحَاتُ حَتَّى تَضِيقَ
هُوَ الْحُرُّ الطَّلِيقُ
لَا يَنَامُ عَلَى مُسْتَقَرٍّ
*

كَشِفْتُ رُؤَاؤَهُ
اللَّيْلُ وَالْأَحْلَامُ... وَالطَّرِيقُ
مِنْ أَقْصَى الْوَاحَاتِ
مِنْ آخِرِ تَخْلَةٍ فِي الصَّحْرَاءِ
جَاءَ يَسْعَى
أَيُّ آتٍ مِنَ الْأَيَّامِ سَيَلِقَاهُ الْفَتَى
وَأَيُّ قَطَافٍ مِنَ السَّنَوَاتِ سَيَقْبِضُهُ
بَدَلَ حَفْنَةِ التَّمْرِ
وَالْقُرْطِ الْقَدِيمِ ؟
هُوَ ذَا لِمَنْ يَرَاهُ
تَحِيفُ كَرْمَحُ
خَافِقُ كَمِثْلِ جَنَاحِ
وَهُوَ فِي السَّبْعِينَ إِذْ يَحْتُ خُطَاهُ

يَبْدُو كَطِفْلِ السَّابِغَةِ
يُسَابِقُ فِي مَدَاهُ

*

أُنْعَبْتَنَا يَا سَيِّدِي
فَأَنْتَ الْجَمُوحُ
مُهْرٌ بِلَا لِيَامٍ وَلَا سَرْجٍ وَلَا رِكَابٍ
وَهَادٌ قَطَعْتَهَا أَنْهَارًا وَشِعَابٍ
دُونِكَ الْمَمَالِكُ وَالْمَسَالِكُ
لَمُحٍ سَرَابٍ
كُنْتُ تَانِي إِثْنَيْنِ مَعَكَ فِي الطَّرِيقِ
الْإِسْقَلُ
وَالْمَسَافَاتُ
وَهَذَا الْجَنُوبُ

*

فِي مَا مَصَى
مِثْلَ صِغَارِ الْعَصَافِيرِ
كُنَّا تُرْفِزِقُ الْحُرُوفَ
تَتَهَجَّى سِرْبَ الْكَلِمَاتِ
عَلَى أَجْنَحِ اللُّغَةِ الْعَدْرَاءِ تَنْطَلِقُ
تَمْتَشِيقُ الْقَضَائِاتِ الْجَدِيدَةَ
تَطِيرُ عَالِيًا وَبَعِيدًا
لَا تَعْبَأُ بِاحْتِرَاقِ الرِّيشِ فِي الشَّمْسِ
وَلَا بِتَمْزِيقِ الْوَرَقِ
حَوْلَهُ تَجْتَمِعُ
فَمِنْ أَجْلِ رَبِيعِ الْقَرَّاشَاتِ
كُنَّا نَاتَلِقُ
هُوَ الصَّقْرُ الَّذِي خَلَقَ قَبْلَنَا
وَطَوَّأَهَا مِنْ مَدَاهَا إِلَى مَدَاهَا
أَبْعَادَ الْأَفُقِ

*

مِثْلَ تَجْمٍ يَأْتَلِقُ
مَازَلْتَ يَا سَيِّدِي تَهْدِي السَّفَائِنَ
وَالْقَوَافِلَ
نَحْوَ الْأَقَاصِي عَبْرَ النَّخُومِ وَالسَّبَاسِبِ
وَبَدَلِ أَنْ تَسْتَرِيحَ وَتَتْرُكَنَا فِي الْخَلَاءِ
عِنْدَ مَهَبِّ الرِّيحِ
هَذَا أَنْتِ تَمُدُّدُ جَنَاحَيْكَ مِنْ جَدِيدٍ
وَتَأْخُذُنَا مَعَكَ

*

يَا عُرْوَةَ الشُّعْرَاءِ
دَمِيئٌ يَدَاكَ مِنَ الشُّوْكِ وَلَمْ تُخَلِّصِ الْحَرِيرَ
مِنَ الْعَوْسَجِ
فَإِي جِرَاحِ سَتُّنَاوُنَا إِيَّاهَا
يَا عُرْوَةَ الشُّعْرَاءِ

هِيَ ذِي حَيْمُوكَ مُشْرَعَةٌ لِلأَحْيَةِ
الظِّلِّ وَالرَّفْدُ فِيهَا وَالْمَاءُ
لِمَنْ ضَلُّوا إِلَيْكَ الطَّرِيقَ
وَلِمَنْ صَاعَ فِي المَدَائِنِ بَيْنَ الحَوَانِيتِ
وَالوِاجِهَاتِ
جَاءَكَ مُرْتَجِعًا يَسْعَى يَطْرُقُ البَابَ
أَمِنًا يَدْخُلُ نَحْوَكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
تَمْسُحُ الأَحْزَانَ عَنْهُ
فَتُرْفَرُ حَوْلَهُ حَمَامَةُ الرُّوحِ
تُنَاوِلُهُ الرِّزَادَ وَعَنَاوِينَ الكِتَابِ
فَمِنْ أَوْرَاقِكَ يَا - أَسْتَاذُ -
إِشْتَعَلَ جِيلَ العَضْبِ
*

وَاحَرَ قَلْبَاهُ - قُلْتُ
أَه مِنْ زَمَنِ العَرَبِ
أَه مِنْ صَحْوِي وَسُكْرِي
وَمُرُوقِي وَلِجَاجِي
وَسُكُونِي وَظُنُونِي
وَإِنطِلَاقِي وَهِيَاجِي
أَه مِنْ عَقْلِي
- إِذَا مَا تَارَ بُرْكَاتًا
عَلَى كُلِّ الأَحَاجِي -
*

مِثْلَ كُلِّ مُسَافِرٍ فِي القِيَا فِي
يُبُوْشُهُ العُبَارُ حَتَّى مِنْ وَعَتَاءِ الطَّرِيقِ
لَكِنَّهُ عِنْدَمَا يَتَكَدَّسُ عَلَى الدَّرُوبِ
يَمْسُحُ بِأَخْجَلِ نَظَارَتِيهِ
فَيَرَى مَا لَمْ نَرِ
إِذْ يَتَبَيَّنُ الظَّلَامَ وَالدُّنَابَ
غَيْرَ أَنَّهُ فِي الدِّيَاجِي
يُنْشَعِلُ بِسَمَةِ
عِنْدَمَا يُطْفِئُ شَمْعَةَ
*

هُوَ ذَا أَشْهَى التَّفَاصِيلِ وَأَحْلَى
كَلِمَا تَأَهَ فِي مُرُوجِ العِنَبِ
وَرَاءَ سَانِحَةٍ لِذِكْرِي وَتَجَلَّى
فَإِذَا أَحْطَأَتِ الكَاسُ سَفْتِيهِ
إِبْتَسَمَ وَقَالَ
- تُحْطِئُ البَوُصْلَةُ ذَاتَ رِيحٍ
أَوْ ذَاتَ حَرِيقٍ
وَلَا يُحْطِئُ قَلْبِي
هُوَ دَرَبِي
وَذَاكَ الأَفُقُ
- شِعْرِي لَهَا تُ الكَادِحِينَ عَلَى الدَّرُوبِ

شَدَوِي أَهَارِيحُ الشُّعُوبِ
مَنْ صَارُغُوا الْأَمْوَاجَ
وَالْبَحَرَ الْعَصُوبُ
مَنْ غَالِبُوا الْأَقْدَارَ
وَاقْتَحَمُوا الْخُطُوبُ
مَنْ عَبَّدُوا الطَّرِيقَ الْمَدِيدَةَ
فِي الْجِبَالِ -
*

مَرَّةً وَنَحْنُ عَلَى الْجِسْرِ قَالَ
إِنَّا لَا نَقْطَعُ النَّهْرَ مَرَّتَيْنِ
قُلْتُ: أَرِيدُ أَنْ أَقِفَ عَلَى الصَّغْتَيْنِ
قَالَ: مُسْتَحِيلٌ... لَا بُدَّ أَنْ تَخْتَارَ
قَائِمًا يَمِينٌ... وَإِمًا يَسَارَ
قُلْتُ عَنِيدًا: عِنْدَئِذٍ أَخْتَارُ الْوَسْطَ
قَالَ: إِذَنْ سَيَجْرُفُكَ التِّيَّارُ
ثُمَّ فِي الْأَمْوَاجِ تَضِيغُ
فَلَا السَّاحِلَ أَدْرَكَتْ
وَلَا سَقَنَكَ الْيُنَابِيعُ
*

مَرَّةً عِنْدَمَا اللَّيْلُ سَجَا
سَاءَلْتُهُ عَنِ الْأَصْدِقَاءِ
إِنَّهُمْ كَمَنْ يُعْرِبِلُ الْمَاءَ
زِدْتُهُ قَائِلًا
وَالنِّسَاءَ ؟
صَمَتَ لِحَظَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ
أَوْلَهُنَّ... أَخْرَهُنَّ أُمِّي -
فَمَنْ يَبْغِينِي الْيَوْمَ
ذَلِكَ الْفَرْطُ الْقَدِيمُ
وَبَكَى
*

هِيَ ذِي تَخْلُتُهُ مَا تَزَالُ
يَا مَا رَحَفْتُ عَلَيْهَا رِمَالُ
يَا مَا رَبَاخُ عَلَيْهَا عَصَفْتُ
يَا مَا رِمَاخُ فِيهَا رُشِبَقْتُ
وَيُمَطِّرُ السَّحَابُ
أَوْ لَا يُمَطِّرُ السَّحَابُ
فَقِيرَةٌ أَوْ جَائِعَةٌ
لَيْسَتْ ذَلِيلَةٌ أَوْ طَامِعَةٌ
يَا تَخْلُتُهُ الصَّامِدَةُ
مَا سِيرُ حُضْرَتِكَ الْخَالِدَةُ ؟
*

وَيَلِي مِنْ زَمَنِ
الْبَسْمَةُ فِيهِ بِالْأَنْبِيَاءِ
الْمُصَافِحَةُ بَيْنَ الْأَحْبَةِ كَفَعَلِ الْمِقْصُ

قلتُ له وقد تجرَّعتُ العُصَصُ
كَيْفَ تُزَاوِجُ ألوانَ قَوْسِ قُرْحِ
وكَيْفَ تُوالِفُ بَيْنَ الحَمَائِمِ والقَضَاءِ
عندَ بابِ القَفْصِ
أجابَ : عندما ترسُّمُ حَبَّاتِ المَطَرِ
على الشَّجَرِ
عندما تستهْدِي الأمواج
إلى السَّواجِلِ دُونَ أنْ تنكسِرَ
وعندما تنظِّمُ سَنَاتِ اللَّالِي
فِي الحَيْطِ الدَّقِيقِ
وقتها تَبِينِي العُلْكَ
لِتَجْتَازَ المَصِيقِ
فَمَا أطولُهُ طريقِ
فَمَا أطولُهُ طريقِ
*

تلكَ خُطاهُ
تُوصِلُنِي إلى مَشاهدِهِ القَدِيمَةِ
وَقَفْتُ أمامَ البُوابِ
صَلدَةُ دَاتِ الصَّخَرِ
على هَيَاةِ الأَقْواسِ
مِنْ أعمدَةِ المَرمرِ قُدَّتْ
قَرَأْتُ تَقِيشَتَهُ : الإِسْمَ والعُنْوانِ
حَمَلْتُ زَادِي... وَأَصَلْتُ الطَّرِيقِ
عِندَ كُلِّ قَرْسِخٍ أَسأَلُ عَنْهُ
نَفْسُ مَا يُقالُ وَمَا قِيلَ
كَانَ قَدْ مَكَتْ هُنَا قَلِيلًا
ثُمَّ سَاقَهُ السَّفَرُ نَحْوَ البَعِيدِ
تُرى أَيْنَ أَلقاهُ
هُوَ الرَّاحِلُ أَبَدًا مِنْ بِيَدِ
إلى بِيَدِ
وَفِي كُلِّ عَامٍ تَراهُ
بِعُمْرٍ جَدِيدِ

— في ذكرى صالح القرمادي —

لست بعيدا حتى أذكرك... لست قريبا حتى أراك

(1)

آخرعهدي به كان جالسا في سيارته يدير محركها بعد أن غادر المركز الثقافي الدولي بالحمامات إثر انعقاد جلسة صباحية طويلة في الملتقى الثاني للشعر وقتها حضر أغلب الشعراء الشبان و عدد وافر من المثقفين و كان صالح القرمادي سيد تلك الجلسة بل إنه أذهل الذين استمعوا إليم لأول مرة و أفحم الذين كانوا يحملون عنه أفكارا مسبقة حول اللغة و الفكر لأن الرجل قد لخص وقتئذ البحر في كأس حينما إستعرض بفاعلية العمق و قوة الإيجاز تاريخ الشعر العربي فأقنع و أخرس الذين يتهمونه بالدارجة و الفرنكوفونية فكم كنت متواضعا يا سيدي حينما لم تفتخر بالكتب و المقالات التي نقلتها من الفرتسية الى لغة الضاد بينما كم من مُتحمّس لها قد أساء إليها

(2)

تلك الجلسة التاريخية ستظل وضاءة في حركة الشعر العربي بتونس لأنها طرحت أسئلة خطيرة في ذهن الشعراء الحاضرين أهمها سؤال اللغة و سؤال الفن كذلك سؤال الإيديولوجيا و أجاب المرحوم صالح القرمادي جوابا حاسما يدل على سعة الإطلاع على التراث العربي والمدارس النقدية الحديثة فبيّن أن سرّ لغة الشعر كامن في طرافة خروجها عن النّسق العادي المتوقع عند المتقبل وهو ما سماه بالإنزياح أو ما عبّر عنه القدامى بالعدول أو التضمين و تدخّل بعده الأستاذ المنجي الشملي و رشاد الحمزاوي لتوضيح هذه المسألة فكانت حقا جلسة نادرة بين النقاد و الشعراء ليتها تواصلت في مناسبات أخرى

(3)

إن شخصية المرحوم صالح القرمادي متعددة الجوانب قصةً وشعرا و دراسات لغوية ونقدية وترجمة ونقلًا ومشاركة فعّالة في عديد المجالات من أهمها ضمن مجلات (التجديد) و (ثقافة) و (أليف) إلا أن قيمة الرجل الحقيقية تكمن في تحريكه للسّاحة الثقافية بتونس منذ أواخر الخمسينيات إلى أوائل الثمانينيات بمُعاصرتة عن قرب لشخصيات مُهمة مثل البشير خريف و محمد فريد غازي و تشجيعه لعدد هام من الشبان هم الآن قد أثبتوا مقدرتهم في عديد المجالات قصة ونقدا وشعرا فصالح القرمادي هو ثالث ثلاثة في كلية الآداب بتونس درسوا بعمق الأدب العربي المعاصر و كان لهم الفضل في تحديد ملامح هذا الجيل الأدبي الجديد وهل يمكن أن ننسى الأستاذين الجليلين توفيق بكار والمنجي الشملي .؟

(4)

إنّ صالح القرمادي مثال نادر للمثقف الذي عاش تناقضات عصره وبيئته فعبرَ عنهما بصدق وبشجاعة ولم يركن إلى الأبراج العاجية بل خالط الناس جميعا وجلس إلى الأدباء الشبان وساهم في عديد النشاطات بحماس و بقدر ما كان يسمح به المجال

قد نختلف في قيمة شعره وقصصه ولكننا نكبر فيه مقدرته العلمية في المجال اللغوي بالخصوص ونتعلم منه تواضعه و دأبه في سبيل الكلمة الملتزمة

(5)

تمضي بنا السنوات يا سيدي و لكنّ صورتك وصوتك مايزالان في ذاكرتي
جلاءً و شموخًا برغم جحود البعض وبرغم نسيان البعض الآخر وبرغم هذا
الوقت الصعب
الآن و قد تركتنا وشأننا
يا سيدي
سنقرع الأبواب وحدنا
مرة بلطف

ومرة بعنف إن لزم الأمر
وسنجلس على عتبات البيوت
القديمة
و في ردهات العمارات الشاهقة
كالأطفال الهرمين
يرسمون على الجدران خطوطا واهية
لنوقع ... ربما ... بالموت
في شباك الحروف

(6)

لأنه الشُّتاء
تركت الموقد يشتعل على مهل
لأنه الظلام
ظل النور في غرفتك حتى الصباح
لأنها قلعة النحاس هي الدنيا
أبقيت الباب مفتوحا
هو الدهر أعمى
فتركت نظارتك على المكتب
وانسللت كي لا تعود ؟
فيا غزلان البحار ويا أسماك الصحاري
جُرح في البحر غزال
وُخِنقت في البرية سمكة

(7)

يا سيدي هل أقول لك صراحة - إنني لست بخير وأن الدنيا رديئة كما
تعرفها فالأمطار قليلة على بلادنا هذا العام وهل أقول لك أيضا إن تلك
الجلسة في المركز الثقافي الدولي بالحمامات لم تتكرر فلقد أغلق ذلك
المكان أبوابه أمام المثقفين و الشعراء الذين نظموا الملتقى الثالث و كان
يحمل إسمك و لكن - معذرة - لم يكن كما نُحب و كما نريد وهل أقول إن
الملتقى القادم لا أحد يتكلم عنه إلى الآن فقد أصبح للشعراء طموحات أخرى
غير القصيدة

بالأمس القريب كنا نتناقش و نتشاجر وربما نتقاتل من أجل الشُّعر واليوم
كذلك نحن و لكن من أجل الكراسي وتذكرة سفر . فبرغم كل شيء وبرغم
كل الأشياء سنواصل خطواتنا على درب الكلمة وقد نتعثر و قد نستريح و
لكننا يا سيدي لن نسقط أبدا فما أعذب الشُّعر و ما أقصر العمر
يا سيدي ها أنك تقول لي : لا تقل كما قيل و إطلع مكان الشُّمس . فما
أعسر أن نقول أنفسنا بلسان حالنا وما أقرب الشُّمس إلينا و لكن ما أبعد
أصابعنا نحوها ؟
لست بعيدا حتى أذكرك
لست قريبا حتى أراك
فكل عام و أنت في ذاكرتي حيّ نابض لا تموت

جريدة الصباح - تونس - 25 مارس 1986

_____ أسئلة الكتابة _____

أنا من جيل فتح وعيه على الأسئلة الكبرى في الثقافة والأدب وفي الشُّعر خاصّة مثل
سؤال بأيّ لغة نكتب؟ أيّ العربية الفصحى؟ أو بالعامية؟ أو بالفرنسيّة؟ ففي المرحلة
التي عقيت سنة 1967 إعتري الثقافة في تونس وفي أغلب البلدان العربية وحتّى في
الشُّرق الأقصى وأوروبا وأمريكا حيرة حادّة إستطاعت أن تُرَجَّ كثيرا من الثّوابت
بسبب التأثير المباشر والحادّ للأزمات التي وقعت وقتذاك: فمن حرب جوان 1967
إلى حرب فيتنام ومن أصدقاء الثّورة الثقافيّة في الصّين إلى أحداث ماي 1968 في
فرنسا وإلى حركات التحرّر العامّة في أمريكا وإفريقيا تلك التي كانت كالسّيل العامر
أو كالنّار تشبّ في اليابس من الأغصان وفي ما تهاوى من الجذوع وإنشخ من
الأغصان وفي ما تناثر من الأوراق

*

كان من الممكن أن أنخرط في سياق السائد من الشعر الذي كان يتراوح بين
معاني الغزل والمديح والعتريّات وبين معاني الرثاء والبكاء وجلد الذات، وكان
من الممكن أن أباشر الكتابة بالعاميّة مُتمثّلا مقولة أنّها أقرب إلى الجماهير
وأسهل في التّداول والإنتشار، بل كان بوسعي أن أنخرط حتى في الكتابة باللّغة

الفرنسية باعتبار أنّها اللّغة الثانية في تونس والتي يمكن بها أن أتواصل مع مدى أوسع في العالم.

ولقد بدأت فعلا في الكتابة بتلك اللّغة ولكنني إكتشفت أنّ في العملية

إنسلاخًا وإنبتاتًا فتراجعت ولم أنخرط في الكتابة بالعامية التونسية عند تلك المرحلة وذلك لسببين اثنين أولهما أنني علمت أنّها كانت ضمن سياق الدعوة إلى القضاء على الهوية الوطنية ذات الأبعاد العربية، وثانيهما عدم إملاكي لمفردات قاموسها الكبير وبالتالي عدم قدرتي على الإحاطة بها والتعبير عمّا كان يخالج نفسي من المعاني الغزيرة والعميقة بتلك اللّغة

ورغم ذلك فإنني أرى أن الأدب العامي شامل لرصيد تراثي غني إنصهرت فيه مختلف المكونات التاريخية تلك التي تتجلى بوضوح من خلال الأمثال والحكم والأزجال والأغاني والحكايات والخرافات والألغاز والنوادر وغيرها وإنّ التهل من هذه التعبيرات إنّما هو إثراء للأدب العربي بل هو رافد مهم من روافد تجديده وتنوّعه

. وقد لاحظت أنّه عندما تصبح الدّعوة إلى الإستغناء عن العربية الفصحى وإبدالها بالدّارجة كتابة وتداولًا فإنّ الأمر عندئذ ينقلب إلى قضايا تتعلّق بمكوّنات الشخصية الوطنية التي أعتبر أنّ اللّغة العربيّة هي اللبنة الأساسية في بنائها وتماسكها وأنا لست مستعدا للمساهمة في هذا المشروع الخطير على الكيان الوطني الذي تمتدّ جذوره الثقافية والحضارية عميقا في التاريخ إلى ما قبل القيروان وقرطاج...

*

إن مرجعية الشّاعر الحديث اليوم ما عادت تقتصر كما كانت على الشّعر القديم المبتوث في المتون والمختارات والمصنّفات من الدواوين تلك التي يقتصر الإبداع الحقيقيّ فيها على بعض القصائد فحسب، بل صارت تلك المرجعية تستند أيضا إلى عديد النصوص الأخرى في الآداب القديمة والمعاصرة تلك التي إطلّعنا عليها فإكتشفنا فيها آفاقا وأنماطا أخرى من الإبداع فحاولنا أن نقتبس من تلك المعالم الإنسانيّة إلى شعرنا الحديث من دون نسخ أو نقل مباشر فالآداب تتلاقح وتتمازج وتتحاكى وتتطوّر ليس بفعل الترجمة والإطلاع فقط وإنّما بسبب العوامل الاجتماعيّة والحضاريّة أيضا. فالجيل الذي كتب قصائده على نمط التّفعية - الشّعر الحرّ - وخرج على نمطيّة البحور والقوافي عند منتصف القرن العشرين قد عبّر بذلك عن خروجه على نسق المجتمع العربيّ القائم على التقاليد والقيم تلك التي ترحزحت بسبب التطوّر الكبير في حياتها الذي استطاع أن يؤثّر في كلّ شيء فيها من تخطيط المدينة ومعمارها، إلى فضاء البيت ومختلف العلاقات بين ذويه، ومن أدوات الكتابة والقراءة، إلى أدوات الفلاحة والطبخ، ومن الأثاث واللباس، إلى الأفكار والإحساس...

إنّ قصيدة جيل النصف الثاني من القرن العشرين عبّرت عن ذلك التغيير والشرح الكبير الذي تمرّ به المجتمعات العربيّة بفعل دوافعه الاجتماعيّة والتاريخيّة العديدة.

*

أمّا الجيل الموالي الذي تشكّل وعيّه في سنوات التّلت الأخير من القرن العشرين فقد عاش فترة الإنهيار والانكسار والمدّمار على المستوى المحلي والقومي والعالمي وعلى مستوى الإيديولوجيات والأحزاب السياسيّة خاصة فأراد أن يبنى وأن يؤسّس على غير ما وجد لعلّه يجد الخلاص فرأيناه ينشُد الجديد والغريب أحيانا ليس في الشّعور والآداب فحسب وإتّما في شتّى الفنون وقد إستند على شرعية التّجديد والبحث والتجريب تلك التي ترنو إلى إنجاز إبداع يمثّل هواجسها ويعبّر عن همومها وأحلامها فذلك هو الأمل والمبتغى، فحسب كلّ جيل أن يثبت بصماته

*

لقد قلتُ مرّة إنّ المحاولة في التّجديد أفضل من التّجّاح في التّقليد وإنّ إيماني بهذه المقولة كان نتيجة المناخ الثقافيّ الذي كان سائدا سنة 1970 تلك السنة التي بدأت فيها النّشر بصفة جدّية مواكبًا عن قرب مقولات الحركات الفكرية والسياسية التي كانت قائمة على قدم وساق في تلك السنوات سواء في الجامعة أو في الشارع والمجتمع أو في الأحداث العربيّة والعالمية حيث كنت متابعا لها و قارئنا نهما لمختلف أطروحاتها وأدبيّاتها وكنت أرفض فيها الانضباط والتسلّط إذ رأيت أنّ التنوّع والإختلاف ثراء في المعرفة وزاد لملء الوطاب وعيّي للفكر والفنّ وفُسحة للرّوح فلقد كنت أحبّ أبا ذر الغفاري وغيفارا معًا وكنت معجبا بغاندي وحبّعل كليهما

أنا لست منظرًا في الفكر والإيديولوجيا ولا ملتزما في السياسة ولكنني رأيت أنّ التاريخ الإنسانيّ أكبر وأشمل من كلّ النّظريّات،

وبالتّالي فإنّ الشّعور عندي لا يحدّه معنى ولا شكلٌ وهو أوسع من التّفاعلات والبحور وأشمل من البلاغة والبيان وما اللغة إلا تعبيرة من تعبيراته العديدة والمتنوعة وقد تضيق به أحيانا... فالرّسم مثلا شعر بالألوان والشّعور رسم بالكلمات والموسيقى شعر بالأصوات والرقص شعر بالحركات فالفنون تتداخل وتتمازج وقد تتضاءل الحدود بينها فما بالك بتلاشي الحدود أحيانا بين مختلف الأنواع ضمن الفنّ الواحد

*

ثمّة قصائد عندي ما مسكّتها بحرف ولا أسكنتها ورقةً فلا عجب أن كتبتُ في السّنوات الأخيرة بعض الأشعار العموديّة ربّما بسبب الحنين إلى الماضي أو بحثا عن طرافة القديم في خصمّ الجديد لم لا؟؟ ذلك أنّ الشّعور عندي: لا يُحدّ بشكل

ولا يُعدّ بنوع ولا يقتصر على موضوع بل إنّ القصيدة يكتبها قارئها وسامعها
أيضا...!؟

رادس - تونس - شتاء 2000

— الأدب التونسي المنسيّ —

إلى اليوم لم أصادف كتابا في تاريخ الأدب التونسي يتناول بالجمع أو حتّى بالإشارة إلى الأدب الذي كان في هذه الرّبوع قبل الحضور العربي الإسلامي في إفريقيا... إذن المسألة تحتاج إلى بسط وتمحيص.

أنا أرى أن البحث في ذلك الأدب التونسي قبل الحضور الثقافي العربي أمر مهمّ الآن بعد أن زالت مخاطر الإهتمام به وحيث ترسخت مفاهيم الانتماء الوطني التونسي عبر منطلقات المغرب العربي والتجدرّ في الثقافة العربية ضمن البعدين المتوسطي والإفريقي وصولا إلى ملامسة الثقافات الأجنبية الأخرى غير أن ذلك لا ينبغي أن يشطب من تاريخنا الحضاري إسهامات بلادنا قبل التعريب فهذه المسألة كانت تثير تحفظ بعض الذين كانوا يرون أن تاريخ تونس يبدأ مع تأسيس القيروان أما البحث في ما قبل ذلك فهو ضرب من الدعوة إلى الإقليمية والانعزالية والمحلية.

إن كتب التاريخ قد حوت نصوصا متنوعة باللغة اللاتينية واليونانية قد ترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية لذلك يمكن تعريب هذه النصوص والتعريف بها كمرحلة أساسية من تاريخ الأدب التونسي القديم الذي أراد الأديب محمد البشروش في الأربعينيات من هذا القرن أن يبدأ به مشروعه الضخم في كتابة تاريخ الأدب التونسي ذلك المشروع الذي ظل دون تحقيق غير أن الباحث والمؤرخ محمد حسين فنطر قد أكد في بحوث عديدة على الابداع الثقافي التونسي في العصور الغابرة قبل الفتح من ذلك توصل إلى إثبات شهادات أدبية تتمثل في الكتب المتنوعة التي تهتم مواضيع الفلسفة والخطابة والشعر والقصة والحقوق أيضا قد صنّفها أفارقة كانوا فخورين بانتمائهم إلى هذه الأرض الطيبة وأعربوا عن هذا الشعور النبيل بصريح العبارة فهذا أبلّيوس قد تعلم ودّرس في جامعة قرطاج وذاع صيته في أركان الإمبراطورية الرومانية و كانت له إذ ذاك الكلمة الأولى في دنيا الفلسفة و الأدب فقد كان يحسن لغة اليونان ولغة الرومان وكان يقول مفتخرا بانتسابه إلى إفريقية " إني جدالي نوميدي " وجدالي نسبة لقبائل جدالة التي كانت تسكن بجنوب البلاد و قال نوميدي نسبة إلى نوميديا وأنه يؤمن بوحدة القبائل الإفريقية من حيث الحضارة و التاريخ.

ويؤكد الدكتور محمد حسين فنطر ان الشاعر فُولُورُوس الذي وُلد بقرطاج وتعلّم بها ولمّا بلغ أشدّه سافر الى روما حتّى شارك في مسابقة شعرية نظمت تحت إشراف الإمبراطور دُمسيوس الذي تبوّأ عرش الأباطرة من سنة 81 الى سنة 96 بعد المسيح وتفوّق الشاعر - فلوروس - بشهادة لجنة التحكيم لكن القيصر سحب منه الجائزة مشيراً أنّه من العار أن يفوز بها افريقيّ على حساب الرومان فما كان من فلوروس إلا أن قال بعد الصدمة " إنّها كادت أن تذهب عقله!"

فالتراث التونسي زاخر قبل الفتح ومنه التراث الأدبي الذي آن الأوان ان نتعرف عليه عند استعراضنا لمسيرة الأدب في بلادنا لعله يكون رافداً آخر يميز التجربة الأدبية التونسية بما يوحى منه من أبعاد وتضمينات ذلك أن الأدب العربي يزداد ثراءً بتعدّد الأمصار والعصور.

— بين الشّعر والنّشر —

كان نشر الكتاب وما يزال الهاجس الكبير الذي يؤرّق الأديب فإذا ما جمع أوراقه ونضدها واستقامت له جعلها في مخطوط وبعد ذلك يرقنها ومن النادر جداً أن يقوم بالرقن بأنامله التي ألقت الورقة والقلم فيلجأ إلى أحد الراقنين أو الراقنات وكم لابد له من صبر ومراجعة ليقدم كتابه في أحسن حال إلى دار النشر والحمد لله لقيت صديقي الأديب عُمر بن سالم فأخبرني أن صاحب دار نشر جديدة هي - سحر - يرغب في نشر مجموعة شعرية لي ولما سألته عن صاحبها فقال إنه فلان وقد نشر له كتاباً أو كتابين وكنت أعرف فلانا هذا في مناسبات معرض الكتاب فقلت لا بأس فالرجل خبير في الطباعة والتوزيع وستنتشر مجموعتي الشعرية في حُلة قشبية

وكان اليوم الموعد التقى فيه ثلاثنا على المودة والأمانى وسلمته مجموعتي الشعرية - نبع واحد لصفاف شتى - وبعد نحو شهر أعلمني بأنها طبعت فأسرعت طيراناً إلى مكتبه بشارع الحرية قرب الإذاعة وسلمني عشر نسخ على أن يضيف لي مائتي نسخة أخرى وهي قسطي من حقوقي مثلما إتفقنا اتفاقاً - صداقة ورجال - وإتفقنا وقتها أيضاً أن يسلمنيها بعد أسبوعين مساء الخميس الساعة الخامسة من الشهر الخامس -ماي- عند حفل توقيع ضمن أمسية شعرية بالمكتبة العمومية بضاحية رادس وقبل يومين من الموعد ذهبت إليه للتأكيد وكي يأتي معه ببضع مئات من النسخ لبيعها للمؤسسات التعليمية في الجهة لأن عدداً من مديريها دعوتهم وعبروا عن استعدادهم لاقتناء المجموعة الشعرية من جملة جوائز الكتب التي سيهدونها في احتفالات آخر السنة الدراسية

وكانت الساعة الخامسة من يوم الخميس من الشهر الخامس وامتلت قاعة المكتبة العمومية التي هيأنا مقاعدها ومنضداتها في أبهى تنسيق وحضر الأصدقاء والزملاء والأدباء والشعراء والمديرون ورواد المكتبة وبقيت أنتظر إطلالة صاحب دار سحر إلى اليوم ...

المسألة قد إتضحت لي بعد هذه الواقعة حيث أنه طبع من المجموعة الشعرية نسخا على قدر عدد ما إفتنته منه وزارة الثقافة التي تُزود بها المكتبات العمومية إضافة إلى عدد ما وُزعه في المعارض والمكتبات التجارية ... أما الشاعر فكان فنصبيه عشر نسخ فقط

أحيانا أصادف مجموعتي الشعرية تلك على أرصفة دكاكين الكتب القديمة فأشتريها مبتهجا..

مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ
وَأَسَاءَ إِلَيْكَ
فَلَا تُبَالِ
تِلْكَ هِيَ الْقَاعِدَةُ

*

مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ
وَمَضَى فِي سَبِيلِ حَالِهِ
لَا بَدَّ أَنْ تَشْكُرَهُ
لَأَنَّهُ خَالَفَ الْقَاعِدَةَ

*

مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ
وَرَدَّ لَكَ الْجَمِيلَ
فَهُوَ إِسْتِثْنَاءٌ
وَعُمْلَةٌ نَادِرَةٌ !

الباب الثاني

يتحوّل نهج إنقلترا وسط العاصمة تونس إلى سوق يوميّة للكتب المستعملة والصالحة لمختلف سنوات الدّراسة فينتصب البائعون بكتبهم على الرصيف مدة أسبوع قبل العودة المدرسية وبعدها بأسبوعين أو أكثر فقلت في نفسي عندما إنتقلت إلى السنة الثانية من التعليم الثانوي في المدرسة الصّادقية لِمَ لا أبيع كتب السنة الماضية خاصة وهي ما تزال في حالة حسنة وأشتري بئمنها الكتب المبرمجة لهذه السنة ؟ فعزمت... وقبل يومين من يوم العودة المدرسية حملت الكتب إلى السوق ونصّدتها

بعناية فوق كرتون على الرّصيف ووقفت متكئا على الحائط أنتظر الرّزق وتوكلت على الله ويافتاح يارزاق كما يكتب التجار في دكاكينهم ويقولون...
بعدها مرّ كثيرون وتصفّحوا الكتب وسألوا عن الثمن وقف فتى أمامي بدا لي في مثل سني أو أصغر بقليل... رأيتُه أنيقا مهذبا لطيفا وسألني عن الثمن الجملي لجميع الكتب فأجبتُه فاستبشر بالثمن وقال لي حسنا أشتريها كلها فابتهجت ابتهاجا كبيرا لسرعة بيع الكتب جميعها وبثمن قريب جدا من ثمنها جديدة غير أنه قال لي إنه لا يملك الثمن معه لأن أمه تخشى عليه من السرقة وطلب مني أن أرافقه إلى بيته حيث يسكن مع أمه الوحيدة في الطابق الأول من عمارة قريبة فقلت له في نفسي ... حسنا يا وحيد أمه وعزيزها.... وأهلا وسهلا بك في العام القادم أيضا
وإحتياطا للطوارئ حملت الكتب وشدت عليها بقوة وسرت إلى جانبه حتى قادني إلى باب عمارة قريبة دخلناها وماكاد يسبقني بخطوتين حتى قال لي بأدب وبصوت ملائكي - لا تُتعب نفسك يا أخي وأعطني الكتب حتى تراها أمي المعلمة ثم أنزل وأسلمك المبلغ الذي إتفقنا عليه بلا نقصان فزدت ثقة به وإطمئنانا وقلت كم هو على خُلق كريم هذا الفتى... كيف لا يكون كذلك وهو ابن معلّمة... سيماهم على وجوههم ولا شك...

بقيت أنتظر أمام باب العمارة سارحا في خيالي كيف سأعود غانما من تجارتي المربحة فذلك المبلغ يوقر لي ثمن كتب هذه السنة التي سأشتريها وسأبقي على البعض منه أيضا.... هكذا هي التجارة أو لا تكون !
مرّ وقت... ساعة... ثم ارتقيت المدارج إلى الطابق الأول فقابلتني مدارج أخرى نزلت فيها مُسرعا فوجدت نفسي في شارع آخر..

_____ كأسُ الماء _____

في يوم شديد الحر من منتصف شهر سبتمبر سنة 1981 وعند الساعة الثانية بعد الزوال بالضبط شرعت في الدرس الأول مع تلاميذ أحد الأقسام بمعهد فرحات حشاد برادس الذي إنتقلت إليه بعدما كنت أدرّس بمعهد مدينة ماطر
أنا أستاذ جديد بالمعهد ويجب أن أفرض شخصيتي فيه بالإعتماد على الجديّة التي تتمثل خاصة في الكفاءة المعرفية وفي الإنضباط لذلك لم أسمح بدخول بعض التلاميذ الذين وصلوا متأخرين فشرعت مباشرة في سرد المحاور المبرمجة مُبيّنا أهميتها وخصائصها وماكادات الحصة تنتصف حتى أحسست بحدة الأوتار الصوتية وبأن الرّيق قد جفّ والحلق قد يبس فإنخفض صوتي وثقلت الحروف بل صارت مؤلمة النطق فوجدت نفسي في الهيجاء بدون سلاح وإذا بي أسمع من آخر القسم مناديا ينادي في

لطف وحماس...سيدي...سيدي ... هل آتيك بكأس ماء ؟
كيف أقول لا...ومن يقدر أن يقول لا...؟!
فأجبت بسرعة نعم وشكرا

فإذا به ينطلق مسرعا ويغادر وماهي إلا دقائق حتى دخل وفي يده كأس وقطرات
الندى تتلألأ من الزجاج...عجبا!...من أين أتى بها وما في المعهد وقتذاك ثلاجة ولا
قوارير ماء ولا مشربة ولا حتى مقهى قريب...لكنني علمت بعدئذ أن المعهد يضم
جناحا خاصا لمبيت التلاميذ لا شك أنه أسرع إليه بعد أن تسلق الجدران وطلب من
أحد معارفه الذين يشتغلون فيه تلك الكأس التي شربتها بردا وسلاما فروتني وشقت
غليلي وجعلتني أواصل درسي الأول على أحسن ما يرام بفضل تلك الكأس .
كأس الماء...وما أدراني ما الكأس...!

مضى أسبوعان أو ثلاثة إنتهجت فيها طريقتي في التدريس فلا أسمح لأحد أن يدخل
متأخرا ولا أن يحضر بدون حفظ محفوظات أو بدون إعداد شرح النص فإستقام لي
الأمر كأحسن ما يكون
كأس الماء... وما أدراني ما الكأس...!

ذات يوم بعدما دخلت القسم وشرعت في شرح نصّ إذّ بالباب يطرق طرقا خفيفا
لطيفا فقلت تفصّل وحسبت الطارق أحد القيمين إذ ما كان يجرأ أحد من التلاميذ أن
يقطع الدّرس وقد وصل متأخرا وتواصل الطرق فقصدت الباب وفتحته فإذا ذلك
التلميذ يبادرني بصباح الخير والإعتذار في أدب لكنني لم أسمح له بالدخول ووبّخته
على التأخير وعلى قطع الدّرس فما كان منه إلا أن ذكرني بأسلوب فيه الكثير من
الدّلال والمكر قائلا أنسيّت يا سيدي أنني أنقذت حياتك بكأس ماء ؟
آنذاك كان لابدّ من السماح له بالدخول ردّا للجميل وإستثناء للقاعدة...
كأس الماء... وما أدراني ما الكأس...!

في اللحظة التي تجاوز فيها العتبة بخطوة واحدة ما راعني إلا وتلميذان آخران التحقا
به ودخلوا جميعا..

مرحى لهم فقد نجحوا في الحيلة والمثل يقول - لا تكن يابسا فئكسر ولا طريا
فئعصر...

كأس الماء... وما أدراني ما الكأس...!

— موعِد السّكلمان —

السّكلمان أو - بخور مريم - زهرة نادرة جميلة لطيفة شذيّة تراها ذات بتلات رقيقة
متعدّدة الألوان وهي من الزهور الجبلية التي لا مثيل لها في برّ البلاد التونسية ولا تنبت
إلا في غابة جبل - بو قرنين - الذي تنبسط بين سفحه وساحل بحره مدينة حمام الأنف
في تناسق بديع الألوان كأنها قوس قزح يلوح من خضرة الجبل وبياض سطوح المنازل

وحمرة قرميد الفيلات وزرقة الخليج وصفرة شمس الضحى وهي تبدو من ناحيته فإذا أنت أمام لوحة تبارك الله أحسن الخالقين

عندما أقصد مدينة حمام الأنف من ناحية تونس العاصمة أورداس سواء بالسيارة أو بالقطار لابد أن ألتفت إلى يميني قبل الوصول لأرى جبل بوقرين - يقابلني بقرنيه وبينهما الثلثة الكبيرة التي ورد في المخيال الشعبي أنها حدثت بسبب ضربة سيف علي بن أبي طالب عندما كان يقارع الكافرين ولله في خلقه شؤون ولكن يا سيّدنا عليّ كرم الله وجهك بعد صولاتك وجولاتك في جيش الأعداء عاد العرب والمسلمون يضرب بعضهم رقاب بعض طمعاً في الحكم وتفرّقوا سبّهلاً وكلّ منهم يدّعي أنه على حق وأن الآخرين على باطل وهم إخوان الشياطين يا سيّدنا عليّ كرم الله وجهك قد أمسى العرب المسلمون منذ قرون وقرون وعصور وعصور في أسفل السّافلين فلا علوم ولا صناعة ولا فلاحه ولا نظام ولا عدل إلا الخراب والتخريب

خواب قصر الباي خراب الحديقة التي أمامه خراب مبنى الحمام خراب الكازينو خراب حوض السمك والنّخيل الذي كان صفوفاً صفوفاً قطعوا اغلبه فيا حسرة على حمّام الأنف التي كانت في عهدهما الزّاهر مثالا للنظافة والنظام والجمال والحضرة يا حسرتاه على الغابة في الجبل فقد غزتها البناءات وهي التي صدرت فيها قوانين منع البناء ولكن حاميها حراميها وضاعت دماء الأشجار هرا وتفرّقت بين المجلس البلدي وإدارة الغابات ووزارة البيئة... إلخ... إلخ....

وبينما أنا في شجوني إذ بي أجدني في محطة حمام الأنف فنزلت من القطار وما كدت أغادر النفق حتى استقبلني صديقي الشاعر عبد الحكيم زريّر هاشاً باشاً ولكن بدون مصافحة ولا أحضان فنحن في زمن الكورونا يا صديقي وتكفي الابتسامة والكلمة الطيبة وما في القلب يصل إلى القلب وصديقنا حكيم هذا من المتيممين بحبّ حمام الأنف فقد نشأ فيه منذ الصغر وله أمتع ذكريات شبابه في أرجائها بين بحرهما وجبلها فتسمعه متحدّثاً عن جولاته وصلواته فيها بحنين وحرقة كلما مررنا بمكان يقول كان وكانت... فيذكر الساعة الكبيرة التي كانت وسط المدينة وهي ساعة أرقامها من الأزهار والورود على بساط عشب يانع ويذكر الحوض من الفسيفساء وفيه سابحات الأسماك الملونة أمام الكازينو... الكازينو... يا حسرتاه على الكازينو...!! ويضرب - حكيمو - كفاً على كفّ في أسف ونكد ونحن نصل إلى الكرنيش الذي قطعوا نخيله فلم تبق من صفوفه إلا نخلات هنا وهناك لست أدري كيف ماتزال صامدة أمام هجومات - ياجوج وماجوج من الوندال والمغول والتاتار وأعراب بني هلال والذين يشبهونهم من الإنتهازيين بعد الإستقلال والثورجين على أنواعهم وأشكالهم بعد 2001.... خراب.... خراب

فما الذي أتى بي إلى حمام الأنف إذن ؟

إنّه مجلس السّكلمان يا حبيبي ! وأكرم به من مجلس والبحر أمامك والجبل وراءك والنّسيم عليل والفصل خريف معتدل وأنت في أنس الأحبة بين حديث يشمل آخر الأخبار السياسية والاجتماعية وبين إستذكار الطرائف الأدبية والشعرية وبين التدقيقات التاريخية واللغوية وواسطة عقد هذا المجلس هو الصديق الأديب والشاعر والمترجم جلال المّخ الحريص على الحضور من منتصف النهار إلى الثانية ظهراً كامل أيام الأسبوع حتى في العطل والأعياد - حسب ما سمعت - حتى وإن لم يحضر أصدقائه الأديباء فلهي مريدون عديدون من حمّام الأنف يسعون إليه في شغف واحترام وصاحبنا هو أيضاً من عشاق حمّام الأنف ومن متيمّميها وقد ترجم عشقه هذا في كتاب عنها أصدره منذ سنوات والغريب الغريب والعجب العجّاب أن هذا الكتاب لم

تقتن منه البلدية ولا نسخة واحدة فلاتحدّثني عن رواج الكتاب وتوزيعه في حمام الأنف ولا في غيرها ورغم هذا الجحود وهذا الإهمال فإنّ - جلال المخ - أصدر أكثر من أربعين كتابا في شتى الأجناس الأدبية باللّغة العربية والفرنسية وهو يمثل واسطة العقد في نادي - إضافات - الذي يجتمع مرتين في الشهر في دار الثقافة وقد احتفى هذا النادي بعشرات الأدباء والشعراء والمثقفين من تونس وغيرها من الزائرين والمقيمين العرب وهو ناد يقوم على الجهود الذاتية طبعاً ويضمّ نخبة من أقلام حمام الأنف من بينهم خاصة أذكر - عبد الحكيم زيرير - فتحي جوعو - صالح الطرابلسي - فتحي جوعو - هشام الخلادي - عمر سبيكة - منيرة الشطّي - علي بوزميطة

مجلس السكلمان أو هكذا أسمّيه أقصده من حين إلى آخر لأجد فيه متعة السماع وأقطف منه جمّ الفوائد من أناس ظرفاء أحبوا الأدب ولا شيء غير الأدب !

———— الرّابعة فجراً ————

ليس من اليسير أن يضرب لك أحدٌ موعدًا في قلب باريس على السّاعة الرابعة فجراً ليحملك بسيّارته من الفندق إلى المطار ثم تجده من غدٍ في ذلك المكان والزمان وقبل خمس دقائق !... نعم... ذلك كان !

فقد حدث مع صديقي الرّاحل الأديب محمد الغزالي الذي عرفته عندما حضر في بعض جلسات نادي الشعر باتحاد الكتّاب التونسيين في سنوات مطلع الثمانينيات من القرن العشرين... صديقي ذلك كان في إستقبالي بمناسبة زيارتي لباريس سنة 1991 ضمن وفد ضمّ الأديب التابعي الأخضر والشعراء نورالدين صمود وفضيلة الشابي وآدم فتحي ومحمد الصغير أولاد أحمد بمناسبة دعوة من جمعية الضفّتين في فرنسا التي كان يترأسها صديقنا - لخضر لالة - أحد قادة الحركة الطلابية بتونس سنة 1971 كانت الرحلة فرصة نادرة لقراءة قصائدنا على منبر المعهد العربي بباريس وفي المركز الثقافي بمدينة سترازبورغ وغيرها وعند ليلة العودة أصرّ صديقي محمد الغزالي على الحضور إلى الفندق لتوديعي وليرافقني بسيارته ومعني الصديق الشاعر نورالدين صمود إلى المطار في ذلك الوقت المبكر جرّصاً منه على المصاحبة وعلى تأمين الوصول في زحمة المواصلات وتشعب الطرقات بين الأنفاق والجسور فكم كان موقفه صادقا وشهما حيث تجلّت فيه معاني التضحية والصدقة كأبهي ما تكون !
رحماك صديقي !

وفي هذه السنة سنة 2014 وقبل أشهر قليلة فقط ضرب لي موعدا في جمعية ابن عرفة بالمدرسة السليمانية قرب جامع الزيتونة بتونس ذات مساء سببت على الساعة الرابعة مساء هذه المرة ليكون في الموعد بالصّبط أيضا فيحضر قادماً من - نطفة - بأقاصي الجنوب ليكون حاضرا بمناسبة تقديم روايته - ثمرة دُرّجين - التي تتحدّث عن

دلاعة كبيرة جدا وعجبية وجدها أهل القرية وسط السوق فإحتاروا في كيفية التصرف فيها باعتبارها مثلت حدثا غريبا وخارقا للعادة وقد عقدوا المجلس البلدي وتشاوروا مع السلطة المركزية في الأمر وشهدت القرية جحافل عديدة من الناس والصحفيين من كل حذب وصوب ليشاهدوا تلك الدلاعة العظيمة ويتابعوا الحدث العظيم لكأن الرواية ترمز إلى قيام الثورة التونسية وما تلاها من تساؤلات وإختلافات .

رحماك صديقي رحماك !

رحماك في زمن قللت وندرت فيه قيم الإخلاص والشهامة والوفاء فأنت إستثناء بما يجيش في وجدانك من حب عارم للأدب ومحبة خالصة لموطنك الذي عملت جاهدا من خلال إنجاز مشاريع إجتماعية وثقافية ليكون أحسن فليت كل المثقفين الذين غادروا الوطن يسيرون على خطاك...

لا تحسبُ عُمرَكَ
بالسَّنواتِ
ولا تُحصِ ثروتَكَ
بالآلافِ والملياراتِ
بل احسبُ عُمرَكَ
بالأصدقاءِ
ووثروتَكَ
بالذكرياتِ
قلْبُكَ ليسَ بالبَّضِّ حَفائِهِ
إنَّما بالمَحَبَّاتِ

دُو النَّظَّارةِ السُّوداءِ

تحيةً لذلك الإسكافي الذي أصلح لي حذائي عندما زرتُ مدينة صفاقس سنة 1994 حيث كنت أتجوّل في حيّها العتيق وإذا بحدائي يتسم بل يضحك نعلهُ مُقهقهًا ممّا أعاقني في السّير وإذا بي أرى بجانب السّور إسكافيا فتقدّمت منه وتعجّبت كيف يحمل نظّارة سوداء والحال أنّه يحتاج إلى إمعان النّظر في قيامه بعمله وما كدت أقترّب منه حتى رحّب بي سائلا مطلبي فمددْتُ له القردة الصّاحكة فجعل يجسّها ثمّ يدقّ فيها المسامير حيث يجب وبعد مُتابعتي لحركاته تفتنّنت أنّه كيف البصر

أَيُّ طَرِيقِ بِي مَصَى * كَمْ طَوَّحَنِي أَلْقَدَمُ
أَهْلًا وَقَالَ مَرَحَبًا * كَيْفَ رَأَيْتَ أَوْدِمُ

حَيِّثُ... قَلْتُ الْجِدَا * التَّلُّ مِنْهُ يَبْسِمُ
تَبَسُّمًا مِثْلَ الْبُكََا * رَبِّ ابْتِسَامٍ يُؤْلَمُ
يَا صَاحِبِي إِنَّ الْوَرَى * فِي حَقِّكَ قَدْ ظَلَمُوا
يَا وَيْحَهُمْ هُمُ الْعَمَى * أَنَامُلُكَ الْأَكْرَمُ
أَنَامُلُ هُنَّ الصُّبَا * لَا تَعَبُ لَا سَقَمُ
الْشَّمْسُ هُنَّ وَالصُّحَى * فِي لَمْسِهِنَّ الْأَنْجُمُ
يَا مَثَلًا لِمَنْ رَأَى * ذِكْرَكَ عِنْدِي تُلْهِمُ

— المقهى البحري —

ذكرى صديقي الشاعر محمد البقلوطي

السِّيَاقَةُ فِي مَدِينَةِ صَفَاقِيسٍ عَمَلِيَّةٌ لَا تُحَسِّنُ عَوَاقِبُهَا بِالنَّسْبَةِ لِلسُّوَاقِ الْمَازِينَ مِنْهَا
فَالْمَدِينَةُ كَثِيرَةُ التَّقَاطُعَاتِ وَمَزْدَحْمَةٌ بِالْمَتَرَجِّلِينَ بِالإِضَافَةِ إِلَى حَرَكَةِ الْمَدْرَاجَاتِ النَّارِيَةِ
الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَحَازِيكَ وَ أَنْ تَقْفِزَ أَمَامَكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي وَ لَا تَحْسَبُ لِحَرَكَتِهَا
الْبَهْلَوَانِيَّةِ عَلَى الطَّرِيقِ أَيِّ حِسَابٍ وَصَحِيحٌ أَنَّ أَصْحَابَهَا مَاهِرُونَ فِي صَوْلَاتِهِمْ وَجَوْلَاتِهِمْ
فِي الطَّرِيقَاتِ وَلَكِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكْلِفُنِي مَا لَا طَاقَةَ لِي بِهِ لِذَلِكَ إِخْتَرْتُ أَنْ أَتْرِكَ سَيَّارَتِي
تَوْوَمَ الصُّحَى فِي مَرَبِضِهَا الْأَمِينِ وَأَنْ أُسْتَقِلَّ أَوَّلَ تَاكْسِي تَقْوُدُنِي سَالِمًا مَطْمَئِنًا إِلَى
شَاطِئِ - سَيِّدِي مَنْصُورِ -

فِي أَوَاسِطِ الْخَرِيفِ يَكُونُ الْإِعْتِدَالُ فِي الطَّقْسِ مَتْعَةٌ رَائِقَةٌ فَلَا الشَّمْسُ تَلْهَبُ
بَسِيَّاطِهَا وَلَا الْبَرْدُ يَنْخُرُ الْمَفَاصِلَ، إِلَّا التَّنْسِيمُ يَخْفِقُ فِي الْأَفْقِ وَدِيْعًا مُنْسَابًا حَتَّى لَا يَكَادُ
يَحْرُكُ أَشْرَعَةَ الْفَلَائِكِ الَّتِي تَبْدُو رَاسِيَةً أَوْ تَكَادُ عَلَى السَّاحِلِ...

شكرا سيدي ... هنا

وَ نَزَلْتُ مِنَ التَّاكْسِي وَحَدِي فَقَدْ تَرَكْتُ فِيهَا صَدِيقِي الشَّاعِرَ مُحَمَّدَ الْبَقْلُوطِي الَّذِي لَمْ
يُرَافِقُنِي هَذِهِ الْمَرَّةَ إِلَى مَقْهَى الْبِرَّاقَةِ الْمَدَاخِلِ فِي الْبَحْرِ، لَعَلَّهُ أَثَّرَ مَوَاصِلَةَ الرَّحْلَةِ
وَحَدَهُ لِمَاذَا تَرَكْتَنِي يَا صَاحِبِي عِنْدَ ذَلِكَ الْمَقْهَى وَ ذَهَبْتَ مَلْتَحِفًا فِي الْبِيَّاضِ إِلَى
الْأَقَاصِي؟ وَ مِثْلَمَا جَلَسْنَا فِيهِ مِنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ عِنْدَ ضَحَى يَوْمٍ جَمِيلٍ هَا أَنَّنِي أَعُودُ إِلَيْهِ
وَ أَجْلِسُ عِنْدَ الرُّكْنِ الْأَيْمَنِ وَالشَّمْسُ تَنْقُرُ بِأَنَامِلِهَا الْبِيضَاءَ زَجَاجِ الْكَأْسِ وَ تَضَعُ فِيهِ
قِطْعَةً وَاحِدَةً مِنَ السُّكَّرِ لَعَلَّهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ صَارَتْ حَفْنَةً مِنَ الْمَلْحِ. لِمَاذَا تَرَكْتَنِي أَعُودُ
وَ حَدِي وَ نَحْنُ اللَّذِينَ تَوَاعَدْنَا عَلَى الْمَجِيءِ مَعًا إِلَى شَاطِئِ سَيِّدِي مَنْصُورِ قَبْلَ عَشْرِ

سنوات لنجلس ساعة أو ساعتين في الليل كئنا نريد أن نجلس بين البحر وهو يتخلل
المواج المقهى من تحتنا و بين خيوط القمر وهي تنسج من حولها هالة الصفاء
والبهجة... معذرة يا صديقي أن تخلت كل هذه السنوات العشر ولم أحضر إلى
موعدا الجميل بالرغم أنني مررت بصفاقس عديد المرّات و في كلّ مرّة ينتابني
الحنين إلى جلستنا البحريّة بموجها الرقيق و بنسيمها الحريّ و بزوارقها الحالمة
على الأزرق وبالأطفال الباحثين عن المّحّار يأخذونه بعد جمعه إلى السّوق كما كنت قد
فعلت أنت ذات يوم عندما كان البحر أجمل و الزمن أرحب بالمرح والفرح رغم
شظف العيش في سنوات اليّتم... ها أنني يا صديقي أعود وحدي غير أنّ ذكرى ذلك
اليوم ما تزال عالقة كأنك الآن و هناك معي حول الطاولة في هذا المقهى الرائع حيث
السّكينة و الهدوء رغم إنجاس الماء وهو يتخلل الأخشاب و رغم حركة إنسياب
النسيم حولنا يزيدان الجلسة حميميّة بالتداخل مع العناصر وهي في حركتها الأليفة
أحيانا نحن في حاجة إلى الإختلاء بذواتنا بعيدا عن صخب المدن و ثرثرة النّاس و
موثيق الحياة...

هذا المكان يُتيح للمرء أن يتوعّل قليلا في مجالات طالما أحسّ بفقدانها رغم كلّ أثاث
الدنيا الذي يملا عليه تفاصيل أيامه.

عند مغادرة المقهى البحريّ بشاطئ - سيدي منصور - وجدت نفس التاكسي في
إنتظاري وكان محمّد البقلوطي داخلها ... لم أصدّق الأمر ففتحت عينيّ مليّا فرأيت
من خلال النافذة يعود إلى الموج وحيدا

_____ مصطفى الفيلالي _____

الذي قال - لا - للكرسيّ

- 1 -

كنتُ ألتقيه من حين إلى آخر وهو يسير في شوارع مدينة رادس فأبادر بتحيته بإحترام
فيردّ بلطف

ومن في رادس لا يعرف سيّ مصطفى الفيلالي الذي تراه كأبها الناس يقضي شؤونه
اليومية بنفسه فأختلاطه بمختلف أصنافهم وأجيالهم لم يزد له لديهم إلا تقديرا وتبجيلا

وإنك تراه وقد تجاوز التسعين حولا نشيطا في حطوه أنيقا في هندامه العصريّ أو
التونسي بلا حياء ولا كبرياء يحمل قفّته وبشترى بضاعته منتظرا دوره ويحيي هذا
ويقف مع ذلك ثم يمضي إلى سيّارته

كنتُ أحيانا أصادف سبي مصطفى الفيلالي في محلّ - البليانات - يراجع فصلا من أحد
فصول كتبه ليكون جاهزا كأحسن ما يكون للطبع فالرجل ولئن اشتهر سياسيا باعتبائه
من الرّغيل الأوّل لوزراء حكومة الإستقلال بالإضافة إلى نشاطه النقابي والتربوي فإنه
كاتب بل أديب أيضا ذو أسلوب بليغ فقارئ كتبه المتنوّعة المضامين والمتروحة بين
السيرة الذاتية والتأملات الفكرية والأطروحات السياسية والإقتصادية والدّينية يستشف
من قلمه أنه مثقّف من طراز رفيع ومن كتبه نذكر - أمّ حامد - مانعة... أيام قرية
الجبيل - مجتمع العمل - موائد الإنشراح...

- 2 -

إنّ الأستاذ مصطفى الفيلالي ينتمي إلى جيل من المثقفين التونسيين الذين عاصروا
الحركة الوطنية فانخرطوا في مختلف مراحلها وتعبيراتها شأنٌ كبير من الأدباء
مثل علي البلهوان ومحمود المسعدي ومحمد المرزوقي ومنور صمادح فعرف أغلبهم
معمّان السياسة واكتوى الكثير منهم بجمر الحكم بعد الإستقلال لكنّ سي مصطفى
الفيلالي عرف كيف يخرج من أتونها وانزلاقاتها سالما مرفوع الرأس فليس من
السّهل أبدا أن يرفض كرسيّ رئاسة الحكومة التونسية عندما حطّي بإجماع الفاعلين
السياسيين سنة 2013 ورشّحوه لهذه المهمة الجسيمة حيث قال أبو العتاهية
في المهدي العباسي عندما بُوع بالخلافة :

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً * إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَدْيَالُهَا
وَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ * وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا

لكنّ سبي مصطفى أدرك برأيه الثاقب وبحنكة خبرته وكذلك بصفاء سريرته أنّ هذا
الكرسيّ - لا يصلح له ولا به - وفي هذا الموقف تبدو وطنيّة الرجل وصدقه ونبله فما
أعظمه من مثقّف نادر الوجود خاصة في هذه السنوات التي إختلط فيها الحابل بالتابل
مثل قول الشاعر القديم :

لقد هزلت حتّى بدا مِنْ هُزَالِهَا * كُلاهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسٍ

- 3 -

حضرتُ سنة 2012 بدار الشُّباب برادس ندوة حول - الرّعيم الحبيب بورقيبة - وقد أدلى فيها الأستاذ مصطفى الفيلالي بشهادته فيه فصّح بين الحاضرين مؤكِّدًا أنّ الحبيب بورقيبة كان كثيرًا ما يستشير أعضاده ووزرائه وأنه لا يجد حرجًا في تغيير رأيه او موقفه في مسألة من المسائل بعد الإنصات إلى مختلف الآراء فيتراجع عن فكرته إذا تبين له الأصلح والأنسب وقد رأى سي مصطفى أنّ بعض الأخطاء التي عرفتها البلاد في عهد بورقيبة لا يتحمّل وزرها بورقيبة وحده وإّما المسؤولية يتحمّلها معه أيضا جميع الذين كانوا من حوله في أخذ القرارات وتنفيذها .
إنّها لعمري شهادة نادرة من رجل دولة ما أحوج تونس لأمثاله !!

حسنا سطيـف

- 1 -

تأخّر نوّار اللّوز هذا العام عام 2019 ونوّار اللوز لرؤيته بهجة... بهجة إفتقدتها هذه الأيام كأن نوّار اللوز أخلف مواعده في تونس مرّة أخرى لم يكن سفري إلى الجزائر قد أعددت له أو مبرمجا ولكّني عندما أحسست بالضيـق من البلاد والعباد ودعتني جمعية المتقاعدين برادس إلى المشاركة مع ثلّة كريمة في رحلة إلى شرق الجزائر إستجبتُ لكأّنها صادفت - حاجة في قلب يعقوب - وقلت لعلها تكون فرصة للاستنشاق هواء جديد ففي الجوّ غبار خانق... وسافرُ تجدُ عِوضا... وكفاك مِنْ حَمَل أوزار الورقة والقلم

- 2 -

كانت الرّحلة مضنية حقا... ليل ومطر ورياح وصقيع... رياحٌ عاتية والطريق مرتفعات ومنحدرات وكل ذلك طويناه ولا بأس... إلا إجراء الانتقال بين الحدود التي يشيب لها الغراب فتذكّرت قصيدة الشّاعر والأديب محمد خليفة التّليسي التي ورد فيها خاصّة

ويُقَلِّبون هويّتي لكأّنها

حَمَلْتُ لهم تحت السّطور عقاربًا

ما كاد يرمقها ويُبصر لونها

حتّى إنزوى عني وقَطَّب حاجبًا

وَيَمُرُّ قُدَّامِي الْغَرِيبِ كَأَنَّهُ
رَبُّ الدِّيَارِ مَنَازِلًا وَمَضَارِبًا
وَيُفْتِّشُونَ مَلَابِسًا وَدِفَاتِرًا
وَيُقَلِّبُونَ مَحَافِظًا وَحَقَائِبًا
قُلْ فَتَنِّشُوا قَلْبِي فِي أَعْمَاقِهِ
حُبُّ يَعْمُ أَبَاعِدًا وَأَقَارِبًا

عندما أصبح الصُّبْح بالغيوم وصلنا إلى مدينة سطيف
فتركنا الجماعة الذين رافقتهم وقد يَمُمُّوا قِبَلْتَهُمْ سَطَرَ الْأَسْوَاق لِيَمْلُؤُوا حَقَائِبَهُمْ
بالبضائع ويخوضوا في بورصة الصُّرْف والأسعار في هذه وتلك... وهنا وهناك... ورحت
أجوب مدينة سطيف المتربعة على هضاب المنطقة الشمالية الشرقية للجزائر...
الجزائر هذا البلد الشاسع الأرجاء المتنوع التضاريس والمناخ والأصول والحضارات تلك
التي إنصهرت مُهَجَّتْهَا فِي إِنْسِجَامٍ وَوَنَامٍ وَتَحَالَفٍ وَتَأَلَّفٍ - وَعَقَدتِ الْعِزْمَ أَنْ تَحْيَا - كما
أنشد شاعرُهَا مُفْدي زكرياء فَقَدِّمَتِ التَّضْحِيَّاتِ وَتَمَكَّنَتِ بَعْدَ الْمَكَابِدَةِ مِنْ نَيْلِ
الِإِسْتِقْلَالِ عَنْ فَرَنْسَا الَّتِي جَعَلَتْ مِنَ الْجَزَائِرِ مَقَاطِعَةً أَوْ وِلَايَةً فَرَنْسِيَّةً وَلَمْ يَكُنْ فِي
حِسَابِهَا أَبَدًا أَنْ تَتَخَلَّى عَنْهَا وَمَا مَجْزِرَةٌ يَوْمَ 8 مَآي 1945 الَّتِي وَاجَهَتْ بِهَا الْقَوَاتِ
الْفَرَنْسِيَّةِ الْمَتَظَاهِرِينَ فِي سَطِيفِ وَالَّتِي خَلَفَتْ 45 أَلْفَ شَهِيدٍ إِلَّا دَلِيلَ عَلَى مَدَى
تَشَبُّثِ فَرَنْسَا بِإِحْتِلَالِهَا لِلْجَزَائِرِ وَلَكِنَّ الشَّعْبَ الْجَزَائِرِيَّ الْأَبِيَّ - أَرَادَ الْحَيَاةَ - فَنَالَ
إِسْتِقْلَالَهُ

- 3 -

أنا الآن وهنا في مدينة سطيف وعند ساحة الإِستقلال القريبة من القلعة البرنطية
والحمامات الرومانية وساحة الإِستقلال محاذية أيضا للمسجد التركي والمباني
الإدارية... هنا مركز المدينة وعلى غير عادة مراكز أغلب المدن الكبرى فإن مدينة
سطيف تبدو هادئة فلا ضوضاء ولا إزدحام ولا صخب فالحياة تمضي فيها سلسة في
هدوء وسكينة وحتى التَّرام الذي يشقُّ السَّاحَةَ جِيئَةً وَذَهَابًا تَرَاهُ يَطْوِي سَكَتَهُ مُنْسَابًا
فَإِنْ كَانَ وَلا بَدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ لِأَمْرٍ مَا فَإِنَّكَ تَسْمَعُ لَهُ جَرَسًا يَرِنُّ كَنَقْرِ الْأَصَابِعِ عَلَى الْبِيَّائِ

- 4 -

مضيتُ أتملُّ تفاصيل جمال هذه المدينة المُخْتَطَّةَ عَلَى الْأَنْمُوزِجِ الْأُورُوبِيِّ فَبَصَمَاتِ
المعماري الفرنسيِّ ما يزال واضحًا لِلْعِيَانِ فِي الْعِمَارَاتِ وَالشَّرْفَاتِ وَفِي سَطُوحِ
القرميد المخروطية الحمراء المناسبة للمناخ الشَّتَائِي وَلِتَسَاقِطِ الثَّلُوجِ

باردٌ هو اليوم في سطيف وفندق - البشير - الذي نزلنا فيه يُطلُّ على الساحة وهو دافئ ومريح لكن ذلك لم يُعْزِني بالبقاء في غرفتي فالسير على الأقدام إستهواني وحُب إكتشاف هذه المدينة دعاني فخرجت أمشي فالمشي يبعث الدفء ويساعد على التأمل وعندما شعرت بثقل الحذاء قلت لا بأس أن تجلس في مقهى مع كأس شاي بالنعناع ويكون فاتحة لتبادل الحديث مع أهل البلد فالمقهى بمن فيه وما فيه يُمثل خلاصة المدينة

- 5 -

الناس في سطيف على قدر كبير من اللطف والمدنيّة وحتى عندما كنتُ أقطع الطريق فإنّ السائق يتمهّل من بعيد ويُفسح لي المجال ولاحظت أن الشوارع والساحات والكراسي فيها نظيفة وعندما دخلت حديقة وسط المدينة وجدت صندوقاً يضمّ كتباً متنوّعة للمطالعة فالكتاب عنوان الحضارة والرقيّ وكذلك المقهى فإنّك تجد آنية السكر موضوعة على الطاولة حتّى على طاولات الأرصفة التي تعجّ بالمارة فلا تسمع صخباً ولا خصاماً ولا زحاما إلا أن يبادروك بالتحية فيقولون سلاماً سلاماً سلاماً يا سطيف على حَمامك تراه يختال أمامك في إطمئنان وأمان أو يرفرف حول نافورة - الفوّارة - أو يخطّ على حَسَنائها التي كلما مررتُ من ساحة الاستقلال حيث الفندق رأيتها جذلي ناشرة جدائلها في تمام الحُسن والجمال تُنصت إلى رقرقة الماء المتدفّق من تحتها ومن الجهات الأربع والزائرون حولها مُعجّبون وهم طائفون ومُتأملون ومُصوِّرون وهي لا تحرّك ساكناً لكأَنَّها غير شاعرة بهم فهي تبدو تسبح عالياً وبعيدا في ملكوت الفنّ والإبداع و - تبارك الله أحسنُ الخالقين -
حَسَناء سطيف تلك هي مَرمر أبيض صقيل أبدعها إزميل النخّات الفرنسي الإيطالي - فرنسيس دي سان فيتال - سنة 1800 كما هو منحوت في أسقل التمثال وقد شاركتُ تلك الحسَناء في معرض باريس الكبير سنة 1898 ورآها حاكم سطيف الفرنسي وقتذاك فأسَرَتْ فؤاده ولم يستطع فراقها ولم يُطِيقُ البُعد عنها ولا صبراً فأتى بها وجعلها على نُصْبٍ بديع في هذه الساحة عند - عين الفوّارة - التي لها شأنٌ كبير عند أهالي سطيف جيلاً بعد جيل وعصر بعد عصر...فسلام عليها وأزكى سلام

_____ المقهى الدمشقي _____

مقهى - زهرة دمشق - بشارع أبي فراس الحمداني بين القلعة وميدان المرجى السّاعة السابعة صباحاً شعرت بفرح عارم عندما وقعت عيناى على هذا المقهى فقد دخل قلبي منذ النظرة الأولى فانا رجل يعشق الجلوس في المقاهي الجميلة وبينى و

بين المقاهي حكايات غرام لا توصف ففي المقهى أجلس للتأمل حيناً ولأقرأ حيناً و كذلك لأكتب أو أتحدث مع الأصدقاء ومقهى - زهرة دمشق - ذكرتني طاولته الرخامية البيضاء الجائمة على قوائمها الحديدية المنقوشة بمقهى قديم كان عند باب سويقة و بمقهى الأندلس بالعطارين بتونس حيث كُنّا نخرج إليه - زمن الشيبية - من المكتبة الوطنية فنجلس بين شذى العطور وبين أريج الأشياء العتيقة حوله وكذلك هناك تستريح العين على أسراب السيّاح الوافدين من بلدان الثلوج.

والقهوة في الشام يضاف إليها الهيل كما نجعل نحن في المغرب العربي التّعناع في الشاي أو قطرات من ماء الزهر في فنجان القهوة.

وأذكر هنا أنّ إنطلاق المقاهي كان من بلاد الشام التي سافر منها رجالن إلى إسطنبول (حيث بعثا أوّل مقهى فيها وذلك في أوائل القرن السادس عشر ومن هنالك إنتشرت المقاهي الى أوروبا حتى أمست أحد مظاهر الحياة في المدينة ومقهى - زهرة دمشق - الذي جلست فيه على غاية من الحميمة فقد هبّا لي النادل كرسياً خشبياً حيث وجدت المكان المناسب : الطاولة والنافذة في الرّكن على اليمين حيث كل شيء يساعدي حينئذ على الكتابة ولكنني ما إستطعت كتابة سطر واحد ربّما بسبب قلة التركيز بالإضافة إلى غلبة بقايا السّهر مع الانتشاء بالمكان.

إن المقهى خلاصة المدينة وهو عنوان الحياة وعلامة للناس فيها وعند مقهى زهرة دمشق ثمة ترقّي و لطف و حذق يدل على رسوخ الحضارة في ربوع الشّام من ذلك مثلا أن النادل ياتيك بالقهوة او الشّاي مع كأس الماء و السكر جميعا في طبق صغير و يضعه أمامك ثم ينصرف لخدمة غيرك أمّا ماسح الأحذية فكأنني به قد علم حرج بعض الناس إن هم مدّوا أرجلهم إليه وهو جالس لمسح أحذيتهم لذلك فإنه يطلب منك حذاءك مُهيئاً موضعاً لقدميك ثم يمضي بالحذاء فيجيء به بعدئذ على أحسن وجه أما كراسي المقهى فلا تتجاوز العتبة الى الرّصيف الذي يمرّ عليه الناس بدون مضايقة أحد وقد لمحتُ مرة أخرى مقاهي ذات ساحة داخلية تظللها الدوالي وتتخللها السّواقى و النوافير الصغيرة فيطيب في رحابها الجلوس

أما رواد المقهى فهم إما جالسون مثلي أو لاعبون للتّرد أو الورق من غير صخب أو هم مولعون بالنارجيلة تنتصب أمام أحدهم في جمال وسحر وخيلاء كأنها الحسناء بدلها و دلالتها و تراه يراوح حبّات سبخته بنعومة بين أصابعه و لست أدري كيف جرى الحديث مع أحد الأخوة في ذلك المقهى حتّى علم أنني من الخضراء تونس هكذا جعل الخضراء أولا وهو يتمنى أن يزور قرطاج والقيروان وسيدي بوسعيد ويتمنى كذلك أن يذوق الكسكسي التونسي فهو أشهر الأطعمة عنده فذكرت له شعر أستاذه صالح القرماذي الذي وزنه صديقي الشّاعر نورالدين صمود على المتقارب فزاده رونقا :

أحبك حبّا طريّا شهيا

كلحم الخروف على الكسكسي

فطرب أخونا طربا شديداً وقد برّح به الشّوق أكثر الى تونس....

أتمنى أن أستقبله ذات يوم.

في الجامع الأموي

عندما هممت بخلع نعلي على عتبة باب الجامع الأموي بدمشق لاحت مني نظرة الى الفضاء الرحب فإذا حمامات يرفرفن ثم يقعن على البلاط لالتقاط الحب ثم ينطلقن في سرب عالياً وبعيدا ربما سيمضي في رحلته الى صحن جامع الزيتونة في تونس فنفس هذا الحمام كنت أراه هنالك والجامع الأموي مقام على هيكل روماني قديم مازالت بعض أعمدته العملاقة قائمة فهي من آثار معبد جوبيتير الذي أقيم هو أيضا على أنقاض المعبد الآراسي وفي المعهد المسيحي أيام الامبراطور تيودوسيوس شيّدت كنيسة عرفت باسم القديس يوحنا وهو النبي يحي عليه السلام وهو صاحب مقام جليل وسط بيت الصلاة في الجامع الذي يبدو كتابا مفتوحا لمن يريد الإطلاع على تاريخ دمشق.

الجامع الأموي عظيم البنيان شاهق الجدران، فسيح الأرجاء شامخ المآذن، متنوع الزخارف من ذهب الفسيفساء الى هندسة المرمر والجليز ومن النقش على الحجر الى الزخرفة على النحاس والخشب ومن التخاريم على تيجان الاعمدة والأقواس الى التصاوير الرسوم على الجدران فكان الجامع الأموي متحف للعصور الغابرة كل زمن يبقى عليه خصائصه واثاره ففيه من ذكرياتنا ما به نباهي وفيه كذلك من الأحداث الأليمة مما يترك الحسرة واللوعة مثلما الحال عندما نزور فيه مقام الحسين ولعل في كل هذا وذاك عبرة للغادي والرائح.

ولئن اتفق الوليد بن عبد الملك لبنائه في أواخر القرن الأول الهجري خراج سبع سنوات من دولة أمية فجاء على غاية من الترف والبذخ فان الخليفة التقى عمر ابن عبد العزيز استنكر كل ذلك الاسراف وجميع ذلك الترف وكاد يأمر بنزع نفائسه وردّها الى بيت مال المسلمين، وقد جعلت سابقا في هذا الجامع عدة ساعات كان بعضها فيه منذ القرن الرابع الهجري وهي على شكل بديع و هندسة فريدة ذلك انه اذا تمت الساعة خرجت حية فصاحت العصافير وصاح الغراب وسقطت بعدئذ حصة في الطست على ما أورده بعض المؤرخين القدامى.

و بينما كنت أطوف بالجامع الأموي من ناحية بعض الأسواق التي تباع الذهب والأشياء المستظرفة إذ بي أسمع وأشاهد أحد المبشرين المسيحيين يدعو بأعلى صوته إلى المسيح بن مريم ويتلو من حين الى آخر من الكتاب المقدس والناس من حوله جيئة

وذهابا أو هم منشغلون في دكاكينهم كأن الأمر من عادة المكان فعجبت لروح التسامح بين القوم هناك و عندما ذهبت الى ناحية باب توما من دمشق وجدت مسجدا بجانب كنيسة فعلمت حينئذ ان البلاد الشامية ظلت محافظة منذ القديم على الألفة والاحترام و التسامح بين مختلف العقائد فيها و الذي يعود الى مآثر صلاح الدين الأيوبي يقف على شواهد رائعة في الاخوة و في الإنسانية الراقية فتراثنا من هذه الناحية زاهر و رائع وعندما كنت عائدا الى الفندق مررت بالأسواق الدمشقية العتيقة فاذا هي تماما مثل الأسواق التقليدية في تونس من حيث التخطيط و الاختصاص ومن حيث الطبع في الناس كيف لا ؟ والفينيقيون هم الذين جاؤوا تونس من هذه الربوع ثم من بعدهم قديم العرب منطلقين من دمشق إلى إفريقية ومنها إلى الأندلس فالثقافة العربية تمتاز بالتمازج والتنوع والشمولية.

— ليلة الكازينو —

المسافة من حلب إلى اللاذقية ليست طويلة ولكن الطريق بينهما أغلبها منعرجات خطيرة تنعطف مرّة مع إنحدار الشّعب كأنّها ستُلقي بنا في الهاوية و مرة ترتقي بنا على القمم حتى نكاد نصل الى حافة السّماء السابعة كأننا لن نعود إلى الدنيا ولكنّ سائقنا - أبا ريمون - عليم بالزّوايا والمزالق وبالأخطار جميعا في تلك الطريق ولكنه أحيان يغامر في المجاوزة وكان عليّ أن لا أنسى الآن المناظر الطبيعية التي تزخر بها تلك الطريق فكأننا كنا نسيل فيها مع الإخضرار الذي كان يبدو من خلال نوافذ السيارة وهي تمرّق كالغزال بين الشّعب والأدوية وبين البساتين والمروج أيضا فكل شبر في هذه الرّبوع إمّا للفلاحة وإمّا للغابة العنّاء التي تشبه الى حدّ غريب غابات - عين دراهم - و - طبرقة - في الشّمال التونسيّ

السّاعة الخامسة في يوم من أيّام أخريات الصّيف يكون عندها الكرنيش في مدينة اللاذقية قد تهيأ لإستقبال آخر المصطافين ويكون البحر بلونه الأزرق قد مضى في المدى البعيد حتى أكاد أرى من خلال لمعان اللّجة فيه شاطئ مدينة رادس هنالك نحو الضفة الأخرى من المتوسط قد أخذني الحنين إلى تونس الخضراء التي عند الحديث عن التاريخ القديم بين الشام وإفريقية قال لي أحد الأدباء السّوريين إن أجدادنا قد غامروا بشجاعتهم مرّتين، مرة عند رحيل الفينيقيين ومرة عند الفتح الإسلامي الذي إنطلق من دمشق عاصمة بني أمية فما كان منّي إلا أن اضفت وها إن الأحفاد يعودون اليكم ثمّ قال لي إن إسمك (سوف) لعله يكون إسما بربريا فقلت يمكن أن يكون كذلك و معناه الواد أو النّهر لكنه بالعربية معناه الصّبر والحجر الذي بين الصّلابة والليونة أو نحو ذلك و قد وردت هذه الكلمة في بعض القصائد لكنّ كلمة سوف هي إسم مدينة في جنوب الجزائر وكذلك هي اسم قرية توجد قرب عمّان في الأردن أيضا.

فالثقافة العربية إستطاعت أن تجمع عبر عصورها الزاهرة تراث الجزيرة والشام والعراق ومصر وإفريقية وغيرها وهو سرّ تمازجها ضمن أبعادها الإنسانية الرحبة.

ذلك بعض الحديث الذي دار بيني وبين أحد أدباء اللاذقية في الكازينو، والكازينو مبنى جميل على النمط العربي القديم بأقواسه وبردهاته قد بناه الفرنسيون - بل الأيادي السّورية - في أواخر العشرينات من هذا القرن ليكون فندقا لإستراحة الضباط وكبار الضيوف عندهم وهو ما يزال في حالة حسنة وصادفت زيارتنا اللاذقية معرضا تجاريا أقيم على طول الكرنيش فاغتنمت السّهرة في الذهاب والإياب فقد كادت رجلاي أن تتسمّرا في حذائي من كثرة الجلوس سواء في السيّارة أو عند الأمسيات الأدبية.

البحر في اللاذقية هو الذي أعطى المدينة سحرها الآخر وهو الذي أثر في طبع الناس هنالك وهم يتفسّحون على نسيمه اللطيف إلى آخر الليل حتى يلتقي عند الكرنيش من كان عائدا من سهرته ومن هو مُقبل على رياضته الصباحية...

لن أنسى ليلة الكازينو السّاهرة فقد تمّعتُ من الغرفة المُجاورة بنغمات سنفونيّة بديعة من أنف وحُنجرة بعض التّلاء .

— على ضفاف دجلة والفرات —

هذه بغداد...

من تحت جناحي الطائرة تبدو في الليل كوشي بساط متلألئ... هذه هي بغداد الرشيد... بغداد دجلة وعيون المها بين الرصافة والجسر... بغداد أبي نواس والتوحيدي... بغداد الكرخ ومقامات الهمذاني... كنت سارحا في صفحات الأدب حتى شعرت بأن الطائرة العراقية تحط بتماس لطيف على الأرض فطفق الركاب يصفقون بحرارة تحية شكر وإعجاب بالقائد وأغلب الركاب شعراء وأدباء تونس والجزائر والمغرب وموريطانيا حتى قال أحدهم مازحا إنه لو سقطت الطائرة وهلك من فيها من الشعراء المغاربة لكتب بقية الشعراء العرب ديوانا كاملا في رثائهم!...

هذه بغداد...

حلم وتحقق أن أزور بلاد دجلة والفرات التي قرأت عنها منذ مطالعاتي الأولى وحدثنا عنها أستاذ التاريخ في معهد الصادقية سيدي الهداوي الذي تخرج من كليتها فكان كثيرا ما يعرج بنا في الدرس للحديث عن ذكرياته في بغداد فيصف لنا وصفا دقيقا شارع الرشيد وشارع المتنبي وحي الأعظمية حتى جعلنا نشتهي مختلف الحلويات البغدادية من كثرة ما حدثنا عن تفاصيل ذكرياته في العراق وهنا لابد من ذكر العلاقة الأدبية الوطيدة بين الأدباء التونسيين المعاصرين والعراق حيث أتم كثير منهم تراسته الجامعية ونذكر على سبيل المثال أبا القاسم كرو والميداني بن صالح وعلي دب الذي كان يجلس معنا أحيانا بمقهى الكوليزي حيث أقبل علينا الأديب يوسف عبد العاطي ذات يوم من ربيع سنة 1984 وأعلمني أنه علم بدعوة عراقية لوفد من الشعراء والأدباء التونسيين وأن إسمي من بينهم فابتهجت إبتهاجا كبيرا وكان إستقبالنا بحفاوة كبيرة ناهيك أن سيارات فخمة خُصصت لنا ضمن موكب تحفُّ به الراجات النارية أوصلتنا إلى فندق الرشيد وهو أرقى فنادق العراق وكان رفيقي في الغرفة الصديق الشاعر محمد بن صالح الذي أتفق معه في كثير من الأشياء ومنها تلك التفاصيل البسيطة... عدم التدخين مثلا....

عندما أصبح الصباح نزلت إلى بهو الفندق ذي الصالات الواسعة والزدهات الممتدة بعضها يُفضي إلى بعض وإذا بجموع الشعراء والأدباء والصحافيين وقد جاءت من بلدان القرات الخمس تتبادل التحايا وكلمات التعارف وتلتقط الصور مع بعضها وتتهادى الكتب بعدما يخطُّ الشاعر والأديب على صفحاتها الأولى عبرات المودّة وقد عدت بعشرات الواوين والكتب من مختلف البلدان التي بدوري أهديت شعراءها ما حملت في حقيبتي من نسخ من ديواني الأول - الأرض عطشى - والثاني - نورة الملح - وقد رجعت - والحق يُقال - بأكثر ممّا حملت معي

هذه بغداد ...

عشرة أيام لباليها إنقضت في لمح البصر بين جلسات للقراءات الشعرية وزيارات سياحية للمعالم والآثار ولبعض المدن من بينها بابل والنجف والموصل وسامراء وغيرها وكلّما وجدت سويغات خارج البرمجة حثت الخطى أجوب شوارع بغداد وأحيائها وأتمشى على جسورها وعند ضفاف دجلة عندما صادفت

تمثال شهريار وشهريزاد فمكثت أكثر من ساعة أتأمل من مختلف الجهات ذلك الإبداع الجميل الذي جعل من الصنم الجامد كيانا مُعبّرًا حتّى لكأني كنت حينذاك أسمع حكاية من حكايات شهريزاد بينما شهريار يتكئ كالمسحور من كلامها وكم هي كثيرة المنحوتات والتماثيل الجميلة في العراق الذي يُعتبر من أوّل البلدان العربية في الفنون التشكيلية الحديثة .

هذه هي البصرة...

حيث يلتقي في شطها دجلة والفرات وتتآلف الحضرات أيضا....هذه مدينة الجاحظ والخليل بن أحمد والسيّاب... كانت شمس الصباح قد لاحت من فوق نخيل مدينة البصرة بعد رحلة قطار الليل ولم أدر كيف وجدت نفسي وجهاً لوجه مع تمثال بدر شاكر السيّاب الذي نال منه الرّصاص والشّظايا في إحدى المواجهات الحربية بين العراق وإيران وهي الحرب التي ليتها لم تكن فقد كانت مآسي ودمرًا وكانت القوى الإمبريالية هي المستفيدة الوحيدة منها وقد لاحظت أنّ عديد الشرفات والنوافذ تُسدل لافتاتٍ سوداء بأسماء شهداء عائلاتها...نعم كانت تلك الحرب تضحية بالأرواح وهمرًا للطاقت وذلك بسبب غياب العقل الرّشيد بين الجارين

لا أظن أن شاعرًا قديمًا أو معاصرًا في العرب أو في العالم نال شهرة وحظوة بين الناس مثلما نالها نزار قباني الذي كان من ضيوف المهرجان الأول للشباب ببغداد سنة 1984 فهو الشاعر الذي تجد دواوينه في كل المكتبات والمعارض وتقرأ حواراته وكتاباته في المجلات والجرائد وتستمع إليه في الإذاعات والتلفزيونات وتتغنّى بكلماته نجاة الصغيرة ويشدّو بها عبد الحليم حافظ وكاظم السّاهر فكلمًا حلّ نزار قبّاني أو مرّ إلا وكان الإهتمام به من طرف الجميع وكثيرة هي باقات الورد التي أهديت إليه أمّا التقاط صورة معه فهي فرصة يجب تصيّدُها في كل حين وأن...اللهم لا حسد... كان المهرجان ملتقى كبيرًا ضم عشرات الأدباء من شعراء وقصاصين وروائيين ونقاد وصحفيين من الأقطار العربية ومن عدد لا بأس به من أدباء البلدان الأخرى ولكن الطريف حقا هو تعرفي على الأدباء العراقيين الذين يكتبون باللغة السريانية والكرديّة واطلاعي على بعض دواوينهم ومجلاتهم

كانت برمجة أيّام المهرجان محكمة التنظيم فقد زرنا - إيوان كسرى - بالمدائن جنوب بغداد ولي صورة تذكارية بصحبة صديقي الشاعر نورالدين صمود والإعلامي فرج شوشان أمام قصر أبو شروان حيث كان مركز الحكم الفارسي الذي إنتهى بمعركة القادسية بانتصار سعد بن أبي وقّاس ومباشرة بعد زيارة ذلك المعلم إتجه الموكب بنا إلى - متحف قادسية صدّام - ويتضمّن لوحات كبيرة تصوّر معركة القادسية ولا شك أنّ مثل هذه الأعمال الثقافية تندرج ضمن الدّعم النفسي في الحرب ضدّ إيران وما إستقبالنا من طرف الرئيس صدّام حسين إلا لهذا الهدف وهنا لابدّ من ملاحظة أساسية ففي تلك السنوات لم تكن وسائل الإتصال في العالم مثلما أصبحت عليه بعد السنوات الأولى من مطلع القرن الحادي والعشرين لذلك كنا نرى العراق خاصة من خلال المجلات الأدبية الراقية التي كان يصدرها مثل - فصول - و - الطليعة - و - أقلام - وقد نشرت فيها منذ سنة 1976 بحيث لم نكن نعرف شيئًا عن شؤون العراق الداخلية لذلك يمكن اعتبار هذه الزيارة إكتشافًا للعراق

تعرفت في هذا المهرجان إلى صديقي الشاعر إبراهيم زيدان الذي كان نعم الرّفيق

والدليل في جولاتي البغدادية وكم كان عارفا بتاريخ المعالم التي زرناها ومنها مقهى أم كلثوم قرب شارع المتنبي المتفرّع عن شارع الرشيد ذلك المقهى الذي يمكنك أن تستمتع فيه على مدى كامل ساعات النهار والليل بأغاني أم كلثوم ولا أنسى أبدا الدعوة الكريمة التي إستضافني فيها صديقي الشاعر إبراهيم زيدان في بيته وأعدّ لي مأدبة من عدد لا يُحصى ولا يُعدّ من أصناف الأطعمة العراقية حتى أنّ الغرفة ضاقت بالصحون من حولنا فكم تمنيت أن أستقبله في تونس بمثل ما إستقبلني من لطف وأنس وكرم لعلني أردّ له البعض من جمائله...

ثم توالت زياراتي للعراق بمناسبة مهرجان المربد الشعري الذي كان محفلا كبيرا للشعراء العرب تسنّى لي من خلاله الإطلاع على آخر ما يكتبون وهو أيضا مناسبة للتعريف بقصائدي التي كانت مختلفة مع أغلب القصائد المنبرية السائدة فوجدت نفسي خارج السّرب أحلق مع عدد قليل من الشعراء الذين يطمحون إلى الجديد بحثا عن التميّز والإضافة وأذكر مرة أنني قرأت قصيدة - البرتقالة - وهي من قصار القصائد فنالت الإعجاب والتصفيق الحار خاصة أنني أنشدتها على إثر شاعر أطال في قصيدته العمودية الحماسية

-- البرتقالة --

تقشرين برتقالة المساء

لظفرك سبّه السكين

للدنيا مثل الدم

ناولتك برجا

ناولتني برجا

فتحنا أبراج الجزيرة

وبايعتك أميرة

من الماء

إلى الماء

ذلك هو العراق الذي عرفته فأحببت شعبه الكريم والأبّي ولا أنسى أبدا أنّ أول تاكسي ركبته من أمام فندق - الرشيد - إلى شارع المتنبي قد فرح السائق بي فرحا كبيرا وأعلمني أنني أول تونسي يلتقيه ويحادثه فأعجب بلغتي العربية وقد كان يظن أن التونسيين لا يحسنونها لعلبة اللغة البربرية والفرنسية على بلدان المغرب العربي وبينما أنا أهمّ بنقده إذ به يقسم بأغلظ الإيمان أن لا يتسلّم منّي - ولا شيء - ثمّ يضيف يلهجة البغداديين الطريفة : تتدكّل...من عيوني

ذلك هو العراق تماما مثل تمثال بدر شاكر السيّاب وهو منتصب واقف رغم الرّصاص والشّظايا

واقفٌ

يداهُ برغم الصّديد...يدانِ

تجنّيان بلحا

يداهُ في الحديد...يدانِ

تُسباحان طيرا

تقولان

سلامًا
سلامًا
ستعودُ للشُّرق
شمسُهُ
الآفلة

آخر عهدي بالعراق كان ضمن وقد إتحد الكتّاب التونسيين فوصلنا بغداد عبر عمّان الأردن عن طريق البرّ
فكانت رحلة شاقّة بمسافة ألف كيلومتر لأن الحصار كان شديدا على العراق بما في ذلك الخطوط الجويّة
وقد حملنا وقتذاك ما إستطعنا من الكتب الصامرة حديثا وما جمعناه من أدوية وأدوات مدرسية فلاحظنا
الحالة اليائسة التي أمسى عليها أغلب الناس في هذا البلد أولئك الذين لقيناهم عامّة أول مرة - رغم بداية
الحرب مع إيران - في عيش رغد ونهضة عمرانية وعلمية وثقافية واضحة للعيان ولكنّ غياب السياسات
الرّشيدة والإستبداد في السّلطة هو الذي أدّى بالعراق إلى الهاوية...
في إحدى المناسبات واكبْتُ مع سي العروسي المطوي في قاعة المؤتمرات الكبرى خطاب الرئيس صدام
حسين عندما طلب من أحد مساعديه مدّه بقذيفة أو عبوة من سلاح جديد وظلّ يُلوّحها بين يديه في
إعتزاز وتحدّ وَهُوَ بينما إهتزّت القاعة بالهتافات والحماس حينذاك همس لي سي العروسي متأسفا وقال
في أذني - ما كان عليه أن يكشف هذا السّلاح...
فكان بعد ذلك على العراق ما كان
وا أسفاه....

_____ مقهى أمّ كلثوم _____

- أ -

شارع الرّشيد ببغداد يُمثّل قلبها النّايض الذي تنطلق منه وتعود إليه دورة الحياة في
مدينة أبي جعفر المنصور الذي إخطتها على ضفاف دجلة بين بواسق النّخيل وشذى
البساتين،

من شارع الرّشيد يمكن أن ترى الحضارة التي إنبثقت في بلاد الرّافدين قبل آلاف
الأعوام وذلك عندما نلاحظ البناء بقوالب الطوب ومن خلال خطوط المباني وزواياها
ثمّ إنك تلامس عبق الحضارة العربيّة عندما تشاهد خشب النوافذ والشّرفات وقد
نُقشت بدقّة وفنّ في ثنائية الأنوار والظلال طبقا لمتطلبات المناخ ولأصول الشّرق في
حُرّمات البيت، هذا بالإضافة إلى شكل المآذن الأسطوانية والمُسجّات بالخزف الأخضر
والأزرق والأصفر في هندسة تثير التأمّل وتُشيع الجلال وتبعث الجمال نحو عوالم
المحبّة والصّفاء

تلك هي بغداد: أخذت من كل الحضارات وصهرتها ومع العصور استطاعت أن تجعل لنفسها طابعا خاصا يلوح في شاعريّة الحياة وفي الذوق المرهف وفي حركة الناس وهم يسعون بجدّ رغم مَحَن الحرب ورغم تحدّيات الزّمن.

- ب -

بالقرب من شارع المتنبّي الذي يبدأ من شارع الرّشيد ثمة مقهى أمّ كلثوم وقد أوصلني إليه في فسحة بديعة صديقي الشاعر إبراهيم زيدان الذي تعرّفت إليه سنة 1984 أثناء زيارتي الأولى لبغداد ومن تلك المناسبة صرنا أصدقاء...

كلّ شيء عتيق في هذا المقهى : من البلاط الى الأرائك ومن الصّور على الجدران إلى المراوح المتدلّية من السّقف ومن الأغاني المسجّلة على الأسطوانات إلى الأغاني الأخيرة في السبعينات لأمّ كلثوم تلك الأغاني التي تستمرّ من السّاعة السّابعة صباحا الى السّاعة الحادية عشرة ليلا دون إنقطاع.

أنشئ هذا المقهى في سنوات السّتين من القرن العشرين وظلّ محافظا على نمطه وتقاليد من ب إلى ابن بدون أيّ تغيير لأنّ صاحبه الأوّل كان من عشاق أمّ كلثوم وروّاده محافظون هم أيضا على إرتيادهم له من سنين طويلة للإستماع و تراهم ينتظرون أغنيتهم المفضّلة الساعات الطوال حتّى أنّهم صاروا يُعرفون لدى عريف المقهى بأغنية من أغاني كوكب الشرق فتراهم مُنصتين شاردين بين صوتها وصورها في مختلف المناسبات عبر السّنوات وهي تُزيّن جدران المقهى التي ما عادت تلوح بينها أو تكاد، و الرّواد من أعمار متفاوتة ومن فئات متنوّعة في المجتمع تراهم يترشّفون الشّاي و كائنّي بهم يترشّفون الفنّ والإبداع بإستمتاع فما أروعها ساعة في ذلك المقهى حيث رحّب بنا المعلم ترحيبا بليغا سائلا عن تونس الخضراء.

- ج -

الأصدقاء الأدباء في العراق مشتاقون الى تونس وإلى النّشر في منابرها الأدبيّة سواء قصائدهم وقصصهم أو كتبهم ممّا يؤكّد متانة الرّوابط بين الأشقاء في المشرق والمغرب رغم أنّ الكتاب في جميع البلدان العربيّة يعاني من إرتفاع ثمن الورق وغلاء تكاليف الطبع وصعوبة التوزيع

إنّ الروابط التّاريخيّة بينمختلف الاقطار العربيّة من المفروض أنها تسهّل إنشاء المشاريع الثقافيّة ذات المصلحة العامة ولكنّ الثقافة في الوطن العربي ما تزال دون درجة الضروريات بالإضافة الى تفتّش الأميّة في مناطق كثيرة مع سيادة قيم الاستهلاك و النّفع السّريع وكلّ هذه المعطيات مع غيرها من الخلافات السياسيّة تجعل الأدب بضاعة كاسدة مع الأسف

— بيني وبين صديقي الشّاعر —

نورد الدّين صمّود

- 1 -

أرسل إليّ صديقي الشاعر الدكتور نور الدين صمّود صورة يبدو فيها بيننا
إبني زياد الذي كان يبلغ من العمر سنتين وقد التقطت لنا
سنة 1986 بشاطئ مدينة المنستير 5 ديسمبر 2017 بهذه الأبيات جاعلا لها - تحية
صباحية - عنوانًا وقد ضمّنها إشارات في الحكمة :

تُمُّرُ الْعُقُودُ كَمَرِّ السَّحَابِ * وَيَبْلُغُ ذَا الطِّفْلِ سِنَّ الشَّبَابِ
وَجَدَّدَ سُوفًا فَأَصْبَحَ جَدًّا * جَدِّي الشُّعُورِ وَعَضَّ الْإِهَابِ
وَمَا شَابَ عَقْلٌ لَهُ شَعْرٌ * وَلَكِنَّمَا شَعَرُهُ الْيَوْمَ شَابَ
وَإِنَّ الْمَشِيبَ وَقَارَ الشَّيْخِ * وَذَلِكَ أَمْرٌ أَتَى فِي الْكِتَابِ
وَإِنَّ الشَّبَابَ أَوْ إِنَّ التَّصَابِي * بِمَا قَدْ يُؤَدِّي لِشُرْبِ الشَّرَابِ
وَتَظْمِ الْقَوَافِي وَتَرْكِ الْعَفَافِ * وَبِحِثِّ عَلَيَّ مَا وَرَاءَ التَّقَابِ
وَكَمْ قَلْتُ لِلشُّعْرِ: هَلْ مِنْ مَتَابٍ * عَنِ الشُّعْرِ قَال: وَ الْمَتَابُ ؟

فأجبتة قائلا في مساء نفس اليوم بتحية مسائية :

إذَنْ يَا صَدِيقِي أَرُدُّ الْجَوَابَ * بِشُّكْرِ جَزِيلٍ بَغْرِ جِسَابِ
عَلَى ضُورَةٍ لُبْنِيَّ صَبِيًّا * وَفِي الصَّيْفِ كُنَّا وَبِحَرًّا عُبابِ
هُوَ الْعُمُرُ يَمِضِي سَرِيعًا فَأَيْنَ * الطِّفْلُ وَلَهُ الْوَلَدُ وَأَيْنَ الشَّبَابِ
وَلَكِنَّهُ الشُّعْرُ بَاقٍ وَفِينَا * يُنْبِئُ... وَعَذْبُ كَأَحْلَى رُضَابِ
قَوَاصِلُ صَدِيقِي صُمُودَ الْقَوَافِي * فَلَا مِنْ مَتَابٍ وَلَا مِنْ مَتَابِ

ثمّ ردّ صديقي صمّود يقول يوم الأربعاء 6 ديسمبر 2017

السّلام عليك هذا الصباح من قليبية إلى تونس ولعله يصل إلى عاصمة التّور، وإلى
اللقاء يوم السبت في نابل مع محبة ن ص

هداك الإله لدرّب الصّواب * فأحسنّت ردًّا بهذا الجواب
وصالحت فنّ الخليل الذي * تجنبتة في زمان الشّبَابِ
وأحسنّت في ما تثرّت قديما * وقد لدّ نظمك عندي وطاق
فإني أرى الدّرّ في صرّة * يطلّ ثمينا، ولا يُستطاب

ولكن إذا تظّموه عُفُودًا * وَبَتَّحِرِ تَضِيرِ الإِهَابِ
سَبَاتًا بِحُسْنِ فَرْحَتَا نَغْنِي * كَمَا تَتَغْنَى الطَّيُورُ الطَّرَابِ
فَعُدَّتْ لِنَظْمِ الذِّي قَدْ تَنَّتْ * فَلَاحَ كَعَقِدِ بِأَحْلَى الرِّقَابِ
وَلَيْسَ بِقَيْدِ وَلَيْسَ بِغُلٍّ * وَلَكِنَّهُ زِينَةٌ لِلْكَعَابِ

فكان الجواب صباح الخميس 7 ديسمبر 2017 حيث أقول :

ألا إنما الشّعْرُ تَبْرُ يُذَابُ * وَسَبُّكَ جَمِيلٌ إِذَا مَا إِسْتَجَابُ
فَإِنْ شَتَّ حُرٌّ طَلِيْقٌ بَدِيْعٌ * وَإِمَّا يَوْزِنُ البُّحُورُ يُصَابُ
و - صَمَّوْدُ - فِي دَا وَذَاكَ قَدِيْرٌ * يَسْبَحُ البُّحُورُ وَشَقَّ السَّحَابُ
وَإِنَّ الجَمِيْلَ يَظَلُّ جَمِيْلًا * وَمَهْمَا تَبَدَّلَ لَوْنُ التِّيَابِ
وَمِثْلَ شَدَى العِطْرِ لَمَّا يَفُوحُ فَلَا * لِشَكْلِ الرِّجَاةِ فِيهِ إِسْتِرَابُ

- 2 -

– وكتبْتُ في تَكْرِيْمِ الصَّدِيْقِ الشَّاعِرِ الكَبِيْرِ الدُّكْتُورِ نُوْرِ الدِّيْنِ صَمَّوْدِ بِمَدِيْنَةِ نَابِلِ يَوْمِ
السَّبْتِ وَالْأَحَدِ 9 وَ10 دِيْسَمْبَرِ 2017 أَقُولُ

أَبَا التُّورِ * مَرَحَى * وَأَسْعَدُ بِتَكْرِيْمِ
أَبُو الشُّعْرِ أَنْتَ * يَقْرُضُ وَتَحْكِيْمِ
وَفِي كُلِّ بَحْرٍ * كَتَبْتَ التَّرَانِيْمِ
فَصَارَتْ جِسَانًا * كَمِثْلِ الْبِرَاعِيْمِ
لَأَنْتَ الْجَدِيْرُ * بِشُكْرِ وَتَعْظِيْمِ
أَجِيْنِكَ حُبًّا * بِدُونِ الْمَرَاسِيْمِ
فَطَابَ اللَّقَاءُ * بِأَحْلَى التَّقَاسِيْمِ

أبو التُّور - هي كنية الصديق الشاعر نور الدين صمود التي أناديها بها في مخاطباتنا
الخاصة

ونشر قصيدا جديدا في موقع - المثقف - فكتبت تعليقا بالمناسبة فكتب تحته قائلا

صباح الخير يا (سُوفُ) الذي قد * أتى من قَيْلِ (سُوفِ) وهُوَ عالمٌ

يُصَاهِي (أفلاطونًا أو أرسطو) * ولكن ليس بُنْكَرُ قَوْلِ (ناظِمِ)

فقد رَفَضَ الفلاسفةُ القُدَامَى * لِمَنْ قد ظلَّ في الأشعارِ حَالِمٌ

(مدينتُهُم مُفَصَّلَةٌ لَدَيْهِمْ) * مُحَرَّمَةٌ عَلَى (عَاوِ وهائِمِ)

فأجبتُه قائلا :

مساءً الخير يا (نُورِ) القوافِي * وللأشعارِ إِيَّاكَ خَيْرُ تَازِمِ

بِإِبْدَاعِ الْجَمَالِ تَصُوعُ شِعْرًا * يَظُلُّ مَلَادَنَا رَغَمَ الْمَظَالِمِ

فَلَا تَحْزَنُ لِقَلَسْفَةٍ تَهَاوَتْ * وَقُلْ بِالشَّعْرِ تزدانُ العَوالمِ

رادس في 23 - 9 - 2018

ثم أضاف الشاعر نورالدين صمود قائلا :

صباح الخير يا (سُوفِ) القوافِي * لقد أصبحتُ للأشعارِ ناظِمِ

وأضحى ما نثرت من اللاكي*كِعَقْدٍ لَامِعٍ فِي كَفِّ نَاطِمٍ
[مدينتنا، بفرط الحسن فيها،] * تظل ملادنا رغم المظالم
لبيت الشعر فيها ألف معنى* يراه العاشقون بعين حالم
إذا ما القلب لم يسكز بشعر* تراه للمحاسن غير فاهم
فلا تحزن لفسفة تهاوت * وقل: بالشعر تزدان العوالم
وتصبح كالرياض بدون زهر* ومثل الدر يبدو دون ناظم
مدينتنا مدى الأزمان ظلت * تجود بشعرها أضعاف (حاتم)
وتونس تونس الزوار فيها * بشعر ظل فيه القلب هائم

4

علمت بتعرض الصديق الشاعر الكبير نورالدين صمود إلى بعض الرضوض إثر سقوطه
في إحدى ردهات منزله مما لزم نقله إلى إحدى المصحات فأرسلت له هذين البيتين
يوم 9 جانفي 2020

أبَا النُّورِ هَبَّهَا كَسَقَطِ العَرُوضِ
فَقُمِ لِلْبُحُورِ بِرَعْمِ الرُّضُوضِ
طَيِّبُ لِكُلِّ الرِّخَافَاتِ أَنْتِ
وَأَنْتِ العَلِيمُ بِسَبْكِ القَرِيضِ !

وبعد أيام قليلة إثر تماثله للشفاء أرسل لي هذه الأبيات

شكوْتُ إلى الله شكوى المريض
من الزمن المُتعدّي البغيض
رأني طبيبًا لكلّ القوافي
وراسخ معرفةً بالقريض
وأبصرني كالخليل بصيرًا
بكلّ رحافات علم العروض
إذا ما أردتُ النهوضَ استعنتُ
بطفلٍ صغيرٍ بذاك النهوضِ
وناديتُ عزمي: رجوتُك عُدّ لي
ولا تتركني ضعيفًا مهيضُ

5

القطيرة

تحيّة إلى الكرام أهل - غمراسن - بالجنوب التونسي الذين عُرفوا منذ القديم بصناعة
القطائر والمخارق والزلاية ونشروها في جميع أرجاء تونس وفي سائر بلدان العالم
وقد كانوا رمز الصدق والشهامة والوفاء والتّضحية وبكسبهم الشّريف تمكّن أبناؤهم
وبناتهم من التقدّم في سبيل العلم والمعرفة وفي مختلف الوظائف والمهن والأعمال.
فالأمل أن لا ينسى الجيل القديم وأن يحافظ الجيل الجديد على القيم - الغمراسنية -
الإنسانية الأصيلة بما فيها من عرّة وإباء وصبر وحبّ للخير لجميع الناس

تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ خُذْ بِالْجَيْنِ * أَرِهْ بِلَمْسِ يَصِيرُ فَطِيرَهُ

أَنَامِكَ السِّحْرُ مِنْهَا الْحَلَالُ * بَقْنِ تَلُوْحُ كَتَّاجِ الْأَمِيرَهُ
بِزَيْتٍ وَقَمْحٍ وَعَزْمٍ عَجَنْتِ * جِبَالًا وَجُبَّتْ بِلَادًا كَثِيرَهُ
إِلَى الرِّزْقِ تَسْعَى بِشَرْقٍ وَعَرْبٍ * تَطْلُوفُ بِهَا وَنَعْمَ السَّفِيرَهُ

لَكُمْ جَاءَكُ الْجَائِعُ وَاشْتَهَاها * فَجَاءَتْ إِلَيْهِ - مَلَاوِي - كَبِيرَهُ

وَشَهْدُ الْمَخَارِقِ مِثْلُ الزَّلَابِي * كَتَلِكَ الْكَوَاكِبِ وَهِيَ مُنِيرَهُ

تَرَى النَّاسَ فِي كُلِّ شَكْلِ وَلَوْنٍ * وَوَاحِدٌ أَنْتَ فِي كُلِّ سِيرَهُ

لِيُنْ طَوْحَتْنَا الدُّرُوبُ فَنَحْنُ * نَحْنُ جَمِيعًا لِيَتَلَكَ الْعَشِيرَهُ

نشرت هذه القصيدة بموقع - المثقف - بتاريخ 18 مارس 2020 وبصفحة جمعية ابن عرفة فدّيج الصّديق الشّاعر الكبير نورالدين صمّود هذه الأبيات مشكورًا

أَيَا صَانَعًا مِنْ عَجِينِ فَطِيرِهِ * يَرَاهَا بِأَهْلِ الْفَخَّارِ جَدِيرِهِ
يُذَهِّبُهَا غَلِيَانَ الرَّيْبِوتِ * فَتَغْدُو نُضَارًا، كَشَمْسٍ مُنِيرِهِ
لـ(عُمَراسِنَ) الشُّكْرُ مِنْ كُلِّ مَنْ * رَأَى فِي الْفَطِيرَةِ خَيْرَ سَفِيرِهِ
وَشَكَرًا لـ(سُوفِ) عَلَى فَخْرِهِ * فَآخِرُونَ بِصُنْعِ الْفَطِيرِهِ

— النُّقْطَةُ —

إلى الصّديق الشّاعر العراقي أديب كمال الدين لذكرى لقائنا في بغداد سنة 1984

كَمْ كَانَ لَابُدُّ مِنْ شَمْسٍ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرِّ لَهَا
فِيَتَحَوَّلُ الصُّوَاءُ إِلَى نُقْطَةٍ
كَمْ كَانَ لَابُدُّ مِنْ كَوْكَبٍ
لِتَتَكَوَّرَ الْأَرْضُ
كَمْ كَانَ لَابُدُّ مِنْ كُشُوفٍ وَحُشُوفٍ
مِنْ بُرْكَانٍ وَزَلْزَالٍ
لِيَصِيرَ الْمُسْتَقِيمُ زَاوِيَةً
وَالزَّوِيَةُ مُتَلْتَلًا
يَتَحَوَّلُ الْمُتَلْتَلُ مُرْبَعًا
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الدَّائِرَةُ !
كَمْ مَقْضَى مِنْ عَصْرِ وَمِنْ مِصْرٍ
مِنْ لَوْحٍ وَمِنْ حَجَرٍ
لِنَرْسُمِ ظِلَّنَا أَلْفًا
لِنَرْسُمِ الْبَاءَ سَنَفَةً
وَالخَاءَ
كَحَدِّ الْحَبِيبَةِ
بِالْهَاءِ أَتَمَمْنَا رِسْمَ الْأَبْجَدِيَّةِ

مثل وثاق ربطناها
وعلى القِرطاس شَدَدناها
كَمْ يلزُمنا مِنْ جِبر وَمِنْ دَهر
لِمَحُو تَرثرتنا
حَتَّى يَعودَ الحَرفُ إلى نُقطةِ البَدءِ
ويُخرِجَ طَليقًا
تحتَ الشَّمسِ

تونس - 16 - 3 - 2006

— من التَّهاني —

- 1 -

تهنئةُ الصِّديقِ الأديبِ عبدِ المَجدِ يوسفِ بِمناسبةِ زفافِهِ بِالشَّاعرةِ الصديقةِ الشاعرةِ
سَهامِ صَفَر

أَعَبَدَ المَجدِ سَلامًا * وَرَبَّ سَلامِ سِهامِ
سِهامِ أَصابَكَ حُبابًا * فليسَ عَلَيا مَلامِ
هِيَ الرُوحُ تُحيي الفُؤادَ * وَيُزهَرُ مِنها الحُطامِ
فَمِنْ بَعدِ مَرِّ السَّنينِ * تَجَدَّدَ فيكَ العَرامِ
فِلاحِ المَشيئِ نُجومًا * وَها قَدَ دَعاكَ الهَيامِ
يَعَدُّبِ الأمانِ أهَّني * وَمِسْكَ الخِتامِ سَلامِ

- 2 -

تهنئةُ بِمناسبةِ زفافِ نجلِ الصِّديقِ الشَّاعرِ عبدِ الحَكيمِ زَريِر

جَميلُ التَّهانيِ أَخي يا حَكيماً * وبِالخيرِ أدعُو فَانتَ الكَريمِ
هَنيئًا زَفاؤُ الأميرِ وأَسعِدُ * سيأتِكَ جيشُ بَنينِ عَظيمِ
و - سَوفُ عُبيدٍ - يُهَيِّ الجَميعَ * سُروُزِ دَعاهُ وِقلْبِ سَليمِ

— أمام الحاسوب —

كان عليّ أولاً أن أحذق لمس الأزرار الدّقيقة وأن أعرف بالتفصيل وظائفها العديدة ثم كان عليّ أن أميز بين مختلف حروف الأبجدية على اللوحة لم يتوقف الأمر عند هذا المستوى الذي كنت قد تعلمت منه الحدّ الأدنى عند إستعمالي - مضطرا - الهاتف المحمول وإنما كان عليّ كذلك أن أعرف الضّروريّ اللازم من عمليات النسخ والإرسال والبحث عن المواقع بل إنني إلى اليوم وبعد أكثر من ستة أشهر مازلت لا أستطيع كتابة مثل هذا النص بسرعة وإتقان وكان عليّ أن أجمع كل ما عندي من عزم لأرسل نصّي الأول فكان موقع - المثقف - أول ما نشرت به و يالها من فرحة تشبه تلك الفرحة العارمة يوم نشرت لي جريدة - الصباح - التونسية أول نص كامل مع أسماء أدبية معروفة و ذلك بتاريخ غرة جانفي سنة 1970

عبر النشر بالإنترنت أحسست بتحرّري من المكان والزمان ورأيتني كأنني أطيّر فوق الحدود والسُدود والجبال وأجتاز المحطات والمطارات والتأشيرات والجوازات ودور النشر والتوزيع والمطابع وأصل بكلماتي دافقة نابضة مباشرة إلى القارئ خاصة عندما إستطعت أن أجعل ديواني الأخير - حارق البحر - في موقعي الخاص وهو :

www.soufabid.com

بحيث يمكن أن يُقرأ أو أن يُنزل يُنسر في أيّ مكان وفي كل وقت من هنا دخلت تجربة جديدة في الكتابة والنشر أربكتني إلى حين ولكنها تجربة تشبه الحالة النفسية التي إنتابتنني وأنا أمسك بريشة الحبر في المدرسة بعدما تعوّدت مسك القصبه تجري بها أناملي على صقيل لوحة الخشب ... هي حالة الدهشة الجميلة أيضا وأنا أجرب الكتابة بالقلم الجاف الذي كان ثورة حقيقية عندي ضد قلم الحبر وقلم الرصاص تلك وقائعي القديمة والجديدة مع الكتابة والنشر من القصبه واللوحه إلى الحاسوب والإنترنت

لقد بدأ النشر في تاريخنا بالترّوي ثم بالنسخ والتّدوين ثم ومنذ قرنين عرفنا طباعة الكتب والجرائد والمجلات إلى أن وصلنا في آخر القرن العشرين إلى مرحلة الطباعة عن بُعد وإلى وسائل الإستنساخ السريع فوصولاً أخيراً إلى هذه المرحلة ذات النشر والإنتشار عبر الإنترنت الذي أثار إلى حدّ ما في التّصوص الأدبية ومن بينها النص الشعريّ خاصة من خلال الجانب الشكلي المرئي

ألاحظ بعد ممارسة تجريبية لهذه المرحلة الجديدة ما يلي:

أولاً - إكتساب مساحة من حرية الكتابة كانت تُعدّ حلماً بعيد المنال
ثانياً - وصول الكتابات إلى عدد هائل من القراء وإلى أماكن ماكانت تخطر على بالي مثل هيروشيما من بلاد اليابان وسيدني من قارة أستراليا

ثالثا - حدوث تفاعل مباشر بين الكاتب وقارئه ممّا جعل النشر عبر الأنترنت يساهم في إرساء روابط التواصل عبر الحوار حيث جعلني أراجع بعض الكلمات بعد الملاحظة من بعض القراء

رابعا - لئن اختلط أحيانا الحابل بالنابل فإن المحكّ الزمّنيّ بما فيه من غربلة على قاعدة البقاء للأصلح والأصحّ سيُبقى الأجدر وسيُلغى الهامشي والردّيء وستكتسب بعض المواقع المهّمة شرعيّتها وتصبح مراجع ذات مصداقية

خامسا - ما تزال فاعلية الأنترنت محدودة التأثير بسبب تفتّشي الأميّة ومحدودية إنتشاره هنا وهناك وذلك لأسباب مختلفة ممّا يجعل النشر التقليدي بواسطة الورقة والكتاب ضرورة لا يمكن الإستغناء عنها في هذه المرحلة وحتى إلى المستقبل المنظور

سادسا - نحن رهينة هذا الصندوق العجيب طالما أنّ الغير له الغلبة فهو المسيطر عليه ويملك أسرارهِ و أزراره فما علينا حينئذٍ إلا أن نعمل جاهدين في سبيل نشر العلم والمعرفة والإرتقاء بمجتمعاتنا نحو الأحسن

سابعا - مهما أفضت إليه الإكتشافات الشكلية عبر وسائل الإتصال الحديثة في النصوص الأدبية بما فيها من شعر وقصة ورواية وغيرها فإن الأثر الأدبيّ الحقيقيّ هو الذي يكتبه صاحبه عن معاناة صادقة وفي معاني الإنسانية وقيمها الخالدة وبصياغة فنيّة متطورة

ذلك هو الذي سيمثّل إضافة حقيقية في تاريخ الإبداع

ربيع 2008

_____ الحلقة المغقودة _____ أو نحو مشروع ثقافيّ تونسيّ بديل

— 1 —

مع سنوات منتصف القرن التاسع عشر ظهر في تونس مشروع حضاري متكامل يتلخّص في مقولة - الإصلاح - يشمل التّواحي السياسية والاجتماعية والدّينية والتعليمية وتجلّى ذلك المشروع الحضاري خاصة في قرار تحرير العبيد وفي تأسيس المدرسة الحربية وإعلان الدّستور وتأسيس المدرسة الصّادقية للمزاوجة بين الأصالة التونسية والمدنيّة الأوروبية فنشأ ضمن هذا المشروع الحضاري العام منهج ثقافي متكامل سار على دربه

أعلام حملوا مقولاته منهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه - أليس الصبح بقريب - وفي تفسيره - التحرير والتنوير - والشيخ عبد العزيز الثعالبي في كتابه - روح التحرّر في القرآن - وكتابه - تونس الشهيدة - وكذلك الطاهر الحداد في كتابه - العمال التونسيون - و - إمرأتنا في الشريعة والمجتمع - وفي الشعر أبو القاسم الشابي ومصطفى خريّف وفي الفنون التشكيلية حاتم المكي وقد إنطلقت الحركة الوطنية من أسس ذلك المشروع الثقافي وأدبيّاته وتخرّجت مختلف أجيالها من مؤسّساته

— 2 —

عندما حقّقت تلك الأجيال الإستقلال في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين سارعت الدّولة الوطنية وفي فترة عشر سنوات فقط من إرساء منظومة ثقافية شاملة ومتكاملة تتكوّن أساسا من اللّجنة الثقافية الوطنية التي تتفرّع عنها لجان ثقافية في كل ولاية ومعتمدية وأحدثت عديد النوادي الثقافية مثل النادي الثقافي الطاهر الحداد والنادي الثقافي أبو القاسم الشابي بالوردية والنادي الثقافي علي البلهوان ونادي القصة وقد عمّت دُور الثقافة أغلب المدن فكانت تعجّ بالشباب من هواة فنون السينما والمسرح والأدب والرسم والموسيقى ونذكر منها مثلا دار الثقافة ابن خلدون ودار الثقافة ابن رشيق ودار الثقافة بصفاقس وقفصة وبنزرت والقيروان وغيرها ولا شك أن لوزارة الثقافة التي على رأسها الأستاذ الأديب الشاذلي القليبي الدّور الأساسي في تلك الإستراتيجية الثقافية التي شملت تأسيس الفرق الجهوية للمسرح ومن بينها خاصة فرقتا الكاف وقفصة وتأسيس أيام قرطاج السينمائية والفرقة الوطنية للفنون الشعبية وإستقبال الأديبين الكبيرين طه حسين وميخائيل نعيمة لتونس إلخ.... ناهيك عن إنشاء المكتبات العامّة والمكتبات المتجوّلة وحافلات السينما في الأرياف والبوادي وعاضد تلك الحركات الثقافية إنشاء الشركة التونسية للإنتاج السينمائي وشركة التّعم للإسطوانات ثمالذّار التونسية للنشر والشركة التونسية للتوزيع فصار الكتاب التونسي مرجعا وعنوانا للثقافة الوطنية ليتحرّر من دور النشر في الشرق والغرب وانتشرت مجلات ثقافية رائدة مثل - الفكر - التجديد - قصص - وظهر ديوان أغاني الحياة للشابي والسّد للمسعودي وشوق وذوق لمصطفى خريّف وبقايا شباب لمحمد المرزوق وقلب على شفة لأحمد اللغماني وسلسلة البعث لمحمد أبي القاسم كرو ودواوين منور صمادح وبرزت أسماء ثقافية جديدة مثل محجوب بن ميلاد وفريد غازي ومحمد الطالب والظاهر قيقة ومحمد العروسي المطوي ومحمد مزالي وبدأ جيل ثقافي آخر يبشّر بحضوره المؤثر والمختلف والفاعل ثقافيا وسياسيا أيضا ألا وهو جيل الجامعة التونسية بمختلف كلياتها... ولاحق في الآفاق الفنيّة أسماء جديدة ففي المسرح نذكر مثلا علي بن عياد وعمر خلفه وفي السّينما أحمد الخشّين وعُمار الخليفة وفي الفنون التشكيلية الهادي التركيبي ومحمود التونسي وفي الأغنية بدأت تعلق نجوم جديدة مثل نعمة وعليّة وأحمد حمزة وفي الموسيقى قدّور

الصّراري ورضا القلعي والطاهر غرسة... وقِسْ على ذلك بقية الفنون
والمعارف كل ذلك صار في ظرف عشر سنوات - فقط - من الإستقلال
- 3 -

على مدى السّنوات الأولى من الدولة الوطنية كان حال البلاد الإجماعي
والإقتصادي والإداري وكفاءاتها العلمية ومواردها المالية وغيرها أقلّ
بكثير من وضعها سنة 2011 تلك السنة الحاسمة التي عرفنا بعدها هدمًا
مُمنهجًا للصّروح الثقافية التي كانت قائمة فبدّل أن تبدأ مراجعة أهداف تلك
المنجزات الثقافية وبرامجها المختلفة مع إعادة النظر في المُشرفين عليها
لتواكب التطلعات الجديدة لتونس ولتعبّر عن آفاقها القادمة رأينا تخفيض
ميزانية وزارة الثقافة وحلّ اللجان الثقافية مع التضييق على الجمعيات
الثقافية العريقة ذات المصداقية والمستقلة بإشتراط قائمة من الأوراق
الإدارية المُجحفة لكانها شركات كبرى وهي التي تنشط بتطوُّع أعضائها لا
غير... نذكر مثلا جمعيات - نادي القصة - جمعية قداماء الصادقية - جمعية ابن
عرفة الثقافية - نادي مصطفى الفارسي... فكادت هذه الجمعيات
تقتصر على إجتماعاتها الدّاخلية من حين لآخر محافظةً على وجودها
وإندثرت ملتقياتها ونواديها ونشرياتها مثلما إمّحت وغابت من صدى النشاط
الثقافي عشرات الندوات والملتقيات الجادة التي كانت في كامل
أنحاء البلاد من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها... أين مهرجانات
المسرح والسينما والفنون التشكيلية والفن الشعبي والشعر الشعبي
والقصة والرواية وأين ملتقى ابن منظور في اللغة وملتقى ابن عرفة في
التراث وملتقى القلصادي في الرياضيات وملتقى الإبياني في العلوم
وملتقى ابن رشيق في النقد؟... أين تلك المواعيد الثقافية الزاهرة في
بنزرت وتطاوين وفي قرقنة وبوسالم وعين دراهم والمتلوي وقلبية وقربة
والمطوية وماجل بالعباس ومنزل عبد الرحمان وزغوان والقلعة الكبرى
والمحرس وغيرها؟

كان من المفيد بعد 2011 أن يتمّ تطوير هذه المنجزات الثقافية ومراجعة
أهدافها وطرق تسييرها ودعم مواردها ولكن عوضا عنها لاحظنا إنتشار
ثقافة الإستهلاك وتغييب الكفاءات العلمية والإبداعية وإبراز مظاهر
الشعبوية وإحتفاء بأعمال مبتذلة لا تساهم إلا في تدني الدّوق وتفشي
الرّداءة وحتى حرية التعبير التي تحققت إلى حدّ بعيد تحوّلت إلى شتيمة
وهتك أعراض وبداءة قول وأخيرا انتهى حتى التعبير عن رأي أو نقل تدوينة
على صفحة خاصة إلى أحكام بالسجن

- 4 -

كان من المفروض مثلا أن تُدعى هيئة ثقافية مشهود لها بالكفاءة
والمصداقية من جميع المعارف والفنون وممثلة للأطياف الثقافية لتُشرف
على برمجة - المدينة الثقافية - التي لاحظنا أن أنشطتها لا تختلف عن أيّ
دار ثقافة أخرى في البلاد لو تمكنت من ميزانيتها؟
وخلاصة القول أنه يجب إرساء إستراتيجية ثقافية واضحة وشاملة فتجعل
المكتسبات الماضية رصيда لها وتتجاوز ما لم يُعدّ يستجيب للطموحات

الجديدة وتنبثق هذه الإستراتيجية من - مشروع ثقافي وطني - يكون نتيجة لحوار واسع تساهم في إرسائه الأطراف الفاعلة في المجتمع ويكون ذلك من خلال مجلس وطني للثقافة تنبثق منه مختلف الأهداف والوسائل ... نعم نحن في أشد الحاجة إلى مشروع ثقافي جديد يعترز بعقريّة شخصيتنا التونسية الضاربة في التاريخ والمتطلعة نحو المستقبل وكى لا يقال مرة أخرى في محفل رسمي بقصر الإليزي إن الإستعمار الفرنسي لتونس كان فقط معاهدة حماية !!

_____ مع الرّؤوس _____

- الرّؤوس - هو عنوان كتاب نقدي للأديب مارون عبود رأيته معروضا في واجهة مكتبة صغيرة قرب جامع الزيتونة بينما كنت في طريقي إلى معهد ابن شرف لمواصلة دراستي الثانوية في شعبة الآداب بعدما درست المرحلة الأولى في المدرسة الصادقية ومن المصادفة العجيبة أنّ الدرس الأول في معهد ابن شرف كان مع أستاذ الأدب العربي الشيخ السلامي ذي الهندام التونسي الأصيل وقد خصص الدرس الأول لاستعراض برنامج السنة الراسية فأشار علينا حينذاك بجملة من المراجع من بينها كتاب مارون عبود - الرّؤوس - وقد اعتبر فيه الشعراء العرب الذين تناولهم بالدرس رؤوساً أي أنهم علامات كبيرة في تاريخ الشعر العربي بما لهم من إبداع وأتباع أعلن أتحدث عن هذا الكتاب ولا عن تلك الرّؤوس ولكنني إستعرت العنوان لاستعراض ذكرياتي مع الرّؤساء العرب الذين التقيت بهم في مناسبات مختلفة وهم الحبيب بورقيبة - زين العابدين بن علي - معمر القذافي - ياسر عرفات - صدام حسين

_____ مع الرئيس الحبيب بورقيبة _____

أول مرة رأيت فيها الزعيم الحبيب بورقيبة سنة أو سنتين بعد الاستقلال بمناسبة مشاهدة موكبه مع زوجته ماتلد - مفيدة - وكانا واقفين في سيارتهما المكشوفة يردان على تحايا وهتافات الجماهير المحتشدة على جانبي الشارع بين باب الجزيرة وباب الجديد أمّا المرّة الثانية فكانت بمناسبة جلاء المستعمر عن بنزرت وذلك عندما رافقت والدي رحمه الله إلى الإحتفال بمغادرة الجيش الفرنسي بنزرت وكان معه وقتذاك أي في شتاء 1963 جمال عبد الناصر واحمد بن بلّة ووليّ العهد الليبي

أما ثالث مرة فكانت أمام قصر الحكومة بالقصبة سنة 1965 بينما كنت ذاهبا إلى مدرسة الصّادقية حوالي الساعة والنصف إذ بي أرى أمام قصر الحكومة فصيلا من الجيش يعزف

النشيد الوطني والرئيس بورقيبة واقف أمام العلم في إستقامة وخشوع فوقفت مع الواقفين وكانوا في أغلبهم من التلاميذ وعندما إنتهى العزف رأينا ينحني ويقبل العلم فطفقنا بعد ذلك نصفق بحرارة ونهتف بأعلى أصواتنا - يحيا يورقيبة....يحيا بورقيبة - وماهي إلا بُرهة حتى إتجه نحونا وصافحنا واحداً واحداً ثم أمرنا في لهجة بين الحزم والحنان قائلاً - هيا أسرعوا إلى معهدكم واجتهدوا في دروسكم

- بورقيبة - زعيم تونس فهو - المجاهد الأكبر - في عهد الاستعمار الفرنسي وقد أطلق عليه هذا اللقب منذ إعتقاله سنة 1934 في أقصى الجنوب التونسي مع عدد من رفاقه وهو الوحيد الذي رفض توقيع رسالة الاعتذار أو طلب الإفراج من الحاكم الفرنسي لذلك استحق ذلك اللقب من إحدى الصحف الصارة وقتذاك

بورقيبة... يمكن أن نذهب في قراءة مسيرته وشخصيته مذاهب شتى والمؤرخون والمختصون هم الأقدر على دراسته وتحليله غير أنه من المفيد لتونس أن تواصل إنجاز ما كان مفيدا وصالحا في عهده مثل ما تحقّق في مجالات الصحة والتعليم والأسرة وغيرها وأن تقطع مع ممارسات الإنفواد بالرأي وعدم التوازن بين مختلف جهات البلاد والتبعية للرأسمالية العالمية

من أقوال بورقيبة التي أثبتتها التاريخ ما نصح به الفلسطينيين في خطابه - بأريحا - سنة 1965 الذي دعاهم فيه أن يعولوا على أنفسهم وأن يعملوا بإستراتيجية - خذ وطالب - مع تاكيد على إستمرار المقاومة

ومن أقواله التي أثبتتها الواقع أن تونس لا يجرؤ عليها أحد من خارجها وأنّ تدهورها وخرابها لا يكون إلا من طرف أبنائها وسيظل الخطاب الذي ألقاه بقاعة بالماريوم بتونس العاصمة وبحضور العقيد معمر القذافي درسا حضاريا للعرب عندما أكد أن تحدّي الحضرة الغربية المهيمنة لا يكون بالشعرات وإنما بالعلوم والإجتهد والعمل وأن وحدة الشعوب العربية لا تكون بالمشاعر والخطب فقط وإنما تتحقّق متى توثقت بينهم الرّوابط الإقتصادية والاجتماعية وغيرها

———— مع الرئيس زين العابدين بن علي ————

في سنة 1987 بلغت تونس أقصى درجات لُزمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما جعل الجميع ينتظر نهاية حكم الزعيم الحبيب بورقيبة كيف ستكون والخشية الكبرى

كانت أن تدخل البلاد مرحلة الصراع الدّموي بين مختلف الأطراف حتى جاء بيان السّابع من نوفمبر واضعاً حدّاً للحقبة البورقيبية التي طالت أكثر ممّا يجب ومبشّراً بعهد جديد زاخر بالوعود والأمانى الجميلة تلك التي كانت تصبّو إليها أجيال تونسية متوالية بعد سنوات عديدة من الكبت والانفراد بالحكم ضمن دائرة ضيقة وقد إستبشر التونسيون - أو الأغلبية الساحقة منهم - بما ورد في ذلك البيان وابتهجوا أكثر بلّاحة بورقيبية التي كانت دون لجوء إلى العنف وبلا قطرة دم واحدة وقد إنضم إلى المراكز المختلفة في السلطنة الجديدة عدد وافر من اليساريين والقوميين والنقابيين وغيرهم ممّا أعطى بن علي شرعية كبرى في السنوات الأولى من حكمه كانت السّنوات الأولى لحكم الرئيس بن علي بصفة عامة مرضية فقدرأى التونسيون المستقبل بعيون ملئها الأمل وانطلقت الحركة الثقافية علمة في جميع جهات البلاد بعدما كانت مكبّلة رتيبة ناهيك أن عديد المسرحيات والأفلام والكتب خاصة ومنها ديواني - نؤرة الملح - تعرّضت للحجز وقد كان لشعار - لا ثقافة التهميش ولا لتهميش الثقافة - الصدى الواسع لدى المثقفين والمبدعين على مدى السّنوات الأولى من تغيير السّابع من نوفمبر خاصة بعد أن إستقبل الرئيس مئات المثقفين والمبدعين والصحفيين من جميع أنحاء البلاد في اليوم الوطني للثقافة الذي كان مناسبة لتكريم ثلثة منهم في كل سنة وقد صافحنا واحدا واحدا في قصر الرئاسة قرطاج يومذاك بعد ان خطب فينا خطابا مليئا بالوعود التي من شأنها أن تشجع على العمل الثقافي في كنف الحرية لو أنها وجدت طريقها إلى التطبيق الحسن ولكن شتّان بين الشعرات والإنجازات...!!! أما المرّة الثانية التي لقيته فيها فبمناسبة - مهرجان الشعر العربي - الذي انعقد في تونس سنة 1994 والذي كنا نأمل أن يستمرّ كل سنة ولكنه كان بيضة الدّيك وقد دُعينا حينذاك إلى حفل إستقبال فيه ما لذّ وطاب وذلك بالقاعة الكبرى في قصر قرطاج ثم صافحنا الرئيس واحداً واحداً وكان وزير الثقافة يقدّمنا إليه ببعض الكلمات لا غير

عندما شارف القرن العشرون على نهايته بدأ الانحدار واضحا في منظومة الحكم زمن بن علي الذي ترك الحبل على الغارب لأفراد عائلته وأصهره ينتهزون فرص الثراء الفاحش مستعملين جميع أدوات الدولة ومتحالفين مع الإنتهازيين من جميع فئات المجتمع فسادت قيم الوصولية والمنفعية والمحسوبية والسوق السوداء وازدادت البطالة تفشيا خاصة لدى الشباب الذي وجد في المغامرة عبر الزوارق الصغيرة تحت جناح الظلام أملا في الوصول إلى سواحل إيطاليا ومنذ سنة 2009 وعلى إثر الإعلان عن فوزه في الانتخابات بدأت باكرا حملات الدعوات تناشد بن علي للترشّح إلى الانتخابات الرئاسية القادمة في سنة 2014 فصار حال البلاد يشبه حالها في آخر عهد بورقيبية فقد تجمّعت أغلب

المصالح بين أيدي عدد محدود من العائلات و ذوي النفوذ واقتسموا خيرات البلاد وتركوا
الخصاصة والبطالة للآخرين ممّا جعل الانفجار العارم أمرا لا بدّ منه في أواخر سنة 2010
ويكون يوم 14 جانفي 2011 حدا فاصلا في تاريخ تونس

_____ مع الرئيس منصف المرزوقي _____

عندما بدأ محمد منصف المرزوقي الكتابة على صفحات جريدة - الرأي - التونسية
استبشرتُ مثل كثير من الأدباء التونسيين بمقالاته التي تنتصر إلى الهوية التونسية الأصيلة
مع الدّعوة إلى القيم الإنسانية الخالدة خاصة أنها بقلم ذي لغة عربية فصيحة ومن معين
علمي يرشح بثقافة عالمية واسعة فاعتبرناه مكسبا ثم توالى إصداراته تباعا وقد صدر
إحدى مقالاته في بعض كتبه وقتذاك بمقطع من قصيد لي عن التعذيب وأذكر أنني أهديته
قصيدا من مجموعتي الشعرية - صديد الروح - عربون صداقة وتقدير خاصة وأن المرزوقي
أضحى عضوا معنا في اتحاد الكُتّاب التونسيين الذي أمضى على - الميثاق الوطني - مثل
أغلب الأحزاب والمنظمات والشخصيات السياسية وقتذاك وعندما كان رئيسا للرابطة التونسية
لحقوق الإنسان استقبلني بصفتي كاتباً عاما للاتحاد سنة 1990 واتفقنا على تنظيم ندوة
في دار الثقافة ابن رشيق حول مسائل تهّم حرية الكاتب والنّشر وقد ساهم في تلك الندوة
عديد الأدباء والمثقفين والصحفيين تلك بعض التفاصيل البسيطة والمهمة في تاريخ تونس
الذي كُنّا شاهدين عليه ومساهمين فيه عسى أن يسترجع الذاكرة بعض الذين يريدون محو
التاريخ والتنصّل من مواقفهم...وعندما حدث السابع من نوفمبر 1987 اعتبرناه نقطة
تحوّل تاريخية فارقة بعد كوابيس السّنوات الصّعبة التي حطّت بكلّكلها على تونس وقد
إنخرط بعد ذلك في الكتابة عن أماني تونس الجميلة وأحلامها وفي كثير من المنابر عديد
الأقلام الطامحة إلى الأفضل منهم قلم الدكتور محمد المنصف المرزوقي الذي أوغل في
المدح السياسي المباشر للرئيس بن علي فلماذا لم يذكر نفسه في - الكتاب الأسود - الذي
نشره مع جملة الصّحفيين والمثقفين والفنانين وغيرهم من الذين أيّحوا توجّهات بن علي
وبرامجه الإصلاحية في فترة من الفترات؟ أين الحقيقة الكاملة وأين التّراهة وأين الشفافية؟
هل يتذكّر سي منصف المرزوقي مقالاته في بن علي منها مقالة - حتى تنجح التلميذة
تونس بجدرلة - ومقالة - صوّتوا لتونس - طبعا يقصد صوّتوا لزين العابدين بن علي ومقالته
الصادرة ضمن كتاب - الميثاق الوطني لمحمد الحبيب حريز وكيف ينسى إستقبالاته له...
وعلى موائد الغداء أو العشاء مع باقة من وجوه المعارضة يمينا ويسرا...أما وقد ورد إسمي

في الكتاب فالجدير بي أن أوضّح أنني كنتُ حقا من الذين إستبشروا بحدوث التغيير فساهمتُ من خلال إتحاد الكتاب وغيره من الفئات الثقافية في كثير من الأنشطة الأدبية المحضة التي ساهمت في إبراز الأدب التونسي على الساحة الوطنية والتعريف به مشرقا ومغربا وفي العالم وأغلب تلك الأنشطة كانت تدعمها وزارة الثقافة مباشرة أو من خلال هياكلها وقد رشحتني وزارة الثقافة مرتين لنيل الوسام الثقافي الذي ناله أغلب المثقفين والمبدعين التونسيين وكثير من الأدباء والشعراء العرب أيضا وقد تحصّلت - مع غيري من المبدعين - وبفضل قانون - رخصة مبدع التي طالبنا بها سنوات عديدة - على تفرّغ لمدة ستة أشهر لإنجاز مشروع أدبي يتمثل في جمع أشعاري وفتح موقع إلكتروني خاص وبخلاف هذا وذاك أصرّح أنني لم أتحصل من رئاسة الجمهورية ولا من سواها على أيّ منصب أو ترقية أو إمتياز أو هبة أو منحة فليت السيّد محمد المنصف المرزوقي - وقد بحث في أرشيف القصر - أن يعمل على أن أسترجع الثمانية عشر يوما تلك التي خُصّمت لي من أجرتي ومن ترقيتي ومن جراية تقاعدي إلى اليوم...لعل ذلك كان بسبب أنني لم أكن ضمن حملات المناشدين سنة 2009 وسنة 2010 لترشيح بن علي للانتخابات سنة 2014....ختاما لا يسعني إلا أن أقول - إنّ المنصف المرزوقي قد خسرت الثقافة ولم تترجم السياسة ولم يقدم شيئا يذكر عندما وضعوه ديكورا على كرسي الرئاسة...ليته ظل كاتباً مدافعا عن القيم الجميلة فيا بؤس المثقف عندما يتخلى عن نبل رسالته

_____ مع معمر القذافي _____

كانت سنوات آخر الستينيات من القرن العشرين بالنسبة لشباب المعاهد والكليات سنوات الوعي بالقضايا العالمية وفي مقدمتها قضية فلسطين وقضية فتنام وقد فتح ذلك الجيل وعيه على صدمة هزيمة الجيوش العربية في حرب جوان 1967 بالإضافة إلى تأثيرات حركات التحرّر في العالم مثل حركة الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية وإعتيال - لوثر كينغ - و - غيفرا - وكفاح إفريقيا الجنوبية بقيادة زعيمها مانديلا و صمود كوبا بقيادة كاسترو ضدّ الغزو الأجنبي

وكانت أصداء الثورة الثقافية في الصين وحركة ماي 1968 في باريس وغيرها من الحركات العمالية والاجتماعية تصل أصدائها إلى شباب تلك السنوات فحركت فيه التوق إلى الحرية والرفض الشديد لكل ما هو سائد من المنظومات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمختلف أنماطها

في هذا المناخ العربي والعالمي زار العقيد معمر القذافي تونس لأول مرة بعد فترة قليلة من إنقلابه العسكري في الفاتح من سبتمبر 1969 وقد خرجت حينذاك مع صديقي صفوان بن مراد للوقوف مع المحتشدين فرأينا موكبه برفقة الرئيس بورقيبة في باب الجزيرة وقد وقفا في السيرة المكشوفة يرذآن على هتافات الجماهير لرؤية خاصة ذلك الضابط الشاب بزيه العسكري الذي ما إنفك يردّد شعارات الوحدة العربية ومحاربة الإستعمار والامبريالية وأذكر أنني رفعت مع صديقي مطرّيتي السوداء عندما لم نجد لافتة فكتبنا عليها بالطباشير الأبيض - تحيا الثورة العربية - وعندما رأها العقيد أشار إلينا بعلامة النّصر فابتهجنا إبتهاجا كبيرا ممّا جعلنا نشق أسواق المدينة العتيقة لنلتقي به من الجهة الأخرى مرّة ثانية في باب سويقة

كنا نتابع خطابات القذافي الحماسية ومشاريعه الوحدوية مع الأقطار العربية ولكن كان مآلها الفشل

في سنة 1974 - في ما أظن - فتحت الجماهيرية الليبية مركزا ثقافيا بتونس العاصمة وفي ساحة الجمهورية أي في مركز المدينة وفي مكان محطة الميترو الآن - أي سنة 2020 - وقد إشتمل المركز على مكتبة كبيرة وبطبيعة الحال يوجد فيها - الكتاب الأخضر - بأعداد وافرة وفي طبعات مختلفة وقد استضاف المركز عديد الأدباء الليبيين والعرب من بينهم الشاعر عبد الوهاب البياتي الذي تعرفت إليه مباشرة في تلك الأمسية ثم لقيته في بغداد وعندما زار تونس في أول تسعينيات القرن الماضي نظمّت له أمسية شعرية في دار الشباب برادس كانت حدثا ثقافيا ممتعا

ذات زيارة من زيارات العقيد لتونس دعنتني وزارة الثقافة مع جملة من المثقفين إلى لقاء خاص للحوار معه في بيت الحكمة بقرطاج ويبدو أن العقيد هو الذي طلبه ليقنعنا بأفكره أو أن بعضهم _ كما علمتُ بعد ذلك _ راد له مناظرة ساخنة مع النخبة التونسية عسى أن تحدّ له من طموحاته وتراجعه في بعض أفكاره

كان موعد بداية الحوار الساعة الثالثة بعد الزوال لكننا بقينا ننتظر أكثر من ساعتين حتى هممنا بالمغامرة لكن شخصيات رسمية سامية ألحت علينا بالمكوث والانتظار حفاظا

على حسن العلاقات بين تونس ليبيا فقد أطرده الأخ العقيد أكثر من خمسين الف عامل تونسي الذين وجدوا أنفسهم في الخلاء على الحدود بين عشية وضحاها وذلك في النصف الأول من الثمانينيات من القرن الماضي لأسباب سياسية ولا شك فما كان منا إلا الصبر بما أن المسألة صارت واجبا وطنيا

أذكر أن العقيد لما دخل علينا لم يلق منا الترحاب الحار الذي تعود إستقباله به في مختلف لقاءاته الأخرى لذلك بدأ كلامه بشيء من عدم الإرتياح وهو ينظر نحو سقف القاعة وأبوابها وجدرانها والقاعة كانت قاعة عرش آخر ملوك تونس ثم انتقل في حديثه من التاريخ إلى السياسة إلى الفقه وكدنا ندخل في هستيريا من الضحك عندما قال في سياق حديثه ما معناه أن الله لو أراد تغطية جسم المرأة لجعل لها ريشا مثل الدجاجة او النعامة

وبعد كلمته الطويلة طلب من الحاضرين أخذ الكلمة للحوار معه فأحجم أغلبهم عن الحديث بسبب الملل من الانتظار والسّماع خاصة وأن اليوم كان من أيام الصيف الحلة ثم انبرى الأديب مصطفى الفارسي له فتكلم مؤكدا على مسألة الحرية التي هي مفقودة في البلدان العربية وبيّن أيضا أن العرب مازالوا يعيشون في ماضيهم الذي يعتبرونه مرجعا ومثالا بينما العالم تطوّر في جميع المجالات ولم يتحمّل العقيد رأي مصطفى الفارسي الجريء فاسترجع منه الكلمة كي لا اقول إنه قاطعه متشنّجا وقال إن الأدباء يحلمون ويعيشون في أبراجهم العاجية لكن رجال الدولة وزعماء الثورات ينجزون ويحققون آمال الشعوب والأمم

وماهي إلا برهة حتى إغتناما فرصة إنتهاء جملته الأخيرة واعتبرناها خاتمة حسنة لكلمته فوقفنا مصفّقين ثم خرجنا مسرعين وأظن أن القذافي كان ينوي الإسترسال في خطابه... كان يمكن للشّقيقة ليبيا أن تكون أحسن حالا...ولكن الإنفراد بالرأي هو الذي جعلها مثل بقية الشعوب العربية تعيش على هامش اللحظة التاريخية التي يضبط عليها العالم الزمن...

———— مع الزّعيم ياسر عرفات ————

منذ الصبا كنت أستمع إلى أحاديث الرجال الكبار في تخوم الجنوب التونسي وهم يتذكرون خبر عدد كبير من المتطوعين التونسيين الذين قصدوا المشرق العربي للمشاركة في حرب فلسطين 1948 ولكنهم ظلوا مرابطين على الحدود لأن السلطات هنا وهناك في ذلك الزمن لم تسمح لهم بالمرور إلى المواجهات والجبهات! بعضهم بقي هناك في مصر أو في ليبيا.... بعضهم عاد يجرّ الأحران والمرارة... وبعضهم انضمّ إلى حركات المقاومة المسلحة التي انطلقت من جديد في أوائل الخمسينيات في تونس والجزائر... ومن - بُور سعيد - إلى الأطلس

رحم الله ياسر عرفات... عند أوئل الستينيات وفي شتاء 1963 وبعد تحرير مدينة بنزرت إتقى عدد من الزعماء العرب في الذكرى الأولى فكانت مناسبة تاريخية رائعة جمعت الحبيب بورقيبة وجمال عبد الناصر وأحمد بلة وولي العهد السنوسي وقتذاك وقد رافقت والدي رحمه الله إلى بنزرت في ذلك اليوم فرأيت موكبهم المهيب يمر بين هتافات الجماهير المتحمسة للوحدة والأخوة ولتحرير فلسطين أيضا... ولكن... تمر السنوات بالشقاكات والخلافات والنكبات

رحم الله ياسر عرفات... بعد حرب 1967 بدأنا نسمع بالمقاومة الفلسطينية وبعمليات الفدائيين وخاصة بشعراء الأرض المحتلة وبفضية اللاجئين وصارت الكوفية الفلسطينية ترمز إلى النضال وتحدي الإستعمار تماما مثل جاكيت الكاكي التي كان يرتديها كاسترو وغيره وياسر عرفات الذي بدأنا نعرفه بالصورة أكثر عندما فتح مكتب منظمة التحرير قرب ساحة روما بتونس

رحم الله ياسر عرفات... كيف إستطاع أن يخترق أسنة اللهب وأن يقفز على حقول الألغام وأن يطوّع قضبان الفولاذ ويُلين حيطان الإسمنت المسلح ويجعل فلسطين علما يرفرف بين أعلام الأمم والشعوب!... من معركة - الكرامة - إلى - تل الزعتر - ومن - دير ياسين - إلى - صبرا وشاتيلا - ومن - أيلول الأسود - في الأردن إلى إجتياح لبنان ومن حصار بيروت إلى - حمّام الشط - ومن بحر... إلى صحراء... إلى... ومن مطار إلى ميناء... سفر على سفر.. وخطر على خطر... كذلك عاش بين الإحتراق والغرق

المرة الأولى التي التقيته كانت في دار الثقافة ابن خلدون بعد نزول كثير من الإخوة الفلسطينيين في تونس إثر جلائهم من بيروت 1982 وكان ذلك بمناسبة إحدى التظاهرات الوطنية الفلسطينية التي كنا كثيرا ما نشارك فيها بإلقاء القصائد فلم نلبث وقتا قصيرا حتى حضر بيننا الزعيم ياسر عرفات مع مرافقيه وجلس ينصت إلينا في آخر القاعة من الطابق

الأرضي ثم ألقى كلمة حماسية على عجل وغادر بعد ذلك المكان فكانت من أجمل ذكرياتي في دار الثقافة ابن خلدون

بمناسبة ذكرى رحيل الشاعر مُعين بسيسو في أوائل سنة 1991 دُعيت إلى إحياء ذكره في منزله الكائن وقتذاك بشارع إفريقيا في المنزه الرابع أو الخامس من ضواحي تونس العاصمة القريبة فحضر عدد من الأدباء ومن أصدقاء عائلة الشاعر الكبير فلاحظت المودة والألفة بين جميع الحاضرين وماهي إلا برهة من الزمن حتى وجدتني وجهًا لوجه ياسر عرفات يدخل من أحد الأبواب برفقة - أبو إياد - وقد أصرّ على حضور هذه المناسبة تكريماً لروح الشاعر معين بسيسو ومساندة أخوية لأرملته ووفاءً للذكريات التي جمعت شملهم في سنوات الخمسينيات في عهد الشباب والراصة والأسفار والنضال..... في تلك السهرة الطويلة والتمتعة عرفت أن ياسر عرفات إنسان يهوى الأدب ويحفظ الشعر ويقدر الأدباء بالإضافة إلى عفويته وأصالته أخلاقه ولطف حديثه مع كل الحاضرين وقد نقلت إذاعة المنستير صوراً صوتية من تلك المناسبة أتمنى أنها مزالت مسجلة في خزينتها المرة الثالثة التي إلتقيت فيها بياسر عرفات كانت بمناسبة تنظيم مؤتمر الأدباء العرب قبيل إندلاع حرب الخليج وإجتياح الكويت بثلاثة أسابيع وقتها كانت العلاقات العربية الرسمية على المحكّ وفي مفترق الطرق فإمّا الوفاق أو الأفتراق الذي لا ريب فيه وفي تلك الظروف الصعبة نظم إتحاد الكتاب التونسيين مؤتمر الأدباء والكتاب العرب ومهرجان الشعر وشعراء العرب الذين وعلى هامش هذه المناسبة دُعي البعض من المشاركين إلى تناول الغداء مع ياسر عرفات في مقرّ منظمة التحرير وقتذاك - بخليج قرمرت - قرب ضاحية المرسى وإستقبلنا الزعيم الراحل في صالون فسيح الأرجاء وكنت برفقة الأستاذ محمد العروسي المطوي رئيس إتحادنا ورئيس المؤتمر فتحدث ياسر عرفات عن تلك الأزمة الخطيرة وعبر عن أسفه من بلوغ الخلافات العربية تلك المرحلة الجارفة بالحدّ الأدنى من التضامن العربي وقال إن أول من سيدفع ثمن تلك الأزمة هم الفلسطينيون غير أن السّحب المتلبّدة على ذلك المؤتمر وحوله وخلال ذلك اللقاء لم تحجب عنّا ترحيب ياسر عرفات بنا فقد كان حريصاً على ملاطفتنا على المائدة بنفسه وبمعيّة الشاعر محمود درويش حيث دعاني أبو عمّار أن أجلس بينه وبين محمود درويش وقد أخرجاني حقاً وهما يقدّمان لي أصناف الطعام بأريحية ولطف

رحم الله ياسر عرفات ياسر عرفات لقد كان من صنف اولئك الزعماء الذين يعرفون منزلة الكلمة وقيمة الأدباء لذلك قرّب إليه العديد من المثقفين الفلسطينيين والأدباء العرب باعتبارهم ذاكرة الأمة كي تحافظ على قيمها الأصيلة

أولئك هم المثقفون والمبدعون الحقيقيون
من الماضي يستلهمون
عن الحاضر يُعبّرون
وبالمستقبل يحلمون...

مع صدام حسين

من أين أبدأ الحديث عن العراق؟

سأبدأ الحديث من - الجنائن المعلقة - التي كانت في مدينة بابل وذلك عندما قرأت وأنا في العاشرة من عمري عن هذه الجنائن العجيبة بمجلة - العربي الصغير - التي كانت تصدر مع مجلة - العربي - الكويتية والتي كان ابن عمي - سي الحبيب - حريصا على إقتنائها وهي مجلة ثقافية متنوعة وذات إخراج جميل ومادة دسمة كنت أطلعها تقريبا من الصفحة الأولى إلى آخر صفحة فيها ولم أكن أعلم وقتها أنني سأقف ذات يوم متجولا بين آثار مدينة بابل مع جملة من الأدباء والشعراء التونسيين والعرب من بينهم الشاعر نور الدين صمود

بعد قراءتي عن - الجنائن المعلقة - وإعجابي الكبير بها خاصة وأن تلك المقالة كانت مرفوقة بصور خيالية لتلك الجنائن وبعد مرور سنوات قليلة دخلت المعهد الصّدي في أول سنة من التعليم الثانوي ودرست مادة التاريخ لدى الأستاذ - الهداوي - الذي أطلعنا على تاريخ العراق القديم وقد كان أستاذنا رحمه الله متخرّجا من إحدى كليّات العراق ومنتزّجا بعراقية فكان الحديث عن العراق في كل درس بطريقة أو بأخرى ممّا شجّع الكثير من تلاميذ ذلك العهد - وأنا من بينهم - على مراسلة شبّان عراقيين إذ كانت المراسلة هواية شائعة لدى ذلك الجيل ومع متابعة الدراسة والمطالعة عرفت العراق أدبا وتاريخا ومنذ أوائل السبعينيات من القرن العشرين صارت المجلات الأدبية تصل إلى تونس بصفة منتظمة تقريبا فكنت من المواظبين على قراءتها لأنها كانت منبرا للأقلام الجادة والجديدة أيضا ونشرت في البعض منها مثل مجلة - الأقلام - والطلّيعَة -

في ربيع سنة 1984 جاءتني دعوة للمشاركة في المهرجان الأول للشباب ببغداد ضمن مجموعة من الشعراء والأدباء والصحفيين فكانت فرحة لا توصف لأن السفر إلى العراق لم يكن سهلاً ولا بسيطاً في تلك السنوات

كان مهرجاناً حقاً

فقد حضره مئات الشعراء والأدباء والمثقفين والصحفيين من أغلب البلدان العربية وأوروبا وآسيا وأمريكا وكنا محلّ حفاوة كبيرة ليس على المستوى الرسمي فحسب وإنما من طرف عموم الناس الذين أحبوا لنا محبة كبرى وقد تابع الكثير منهم قصائدنا عبر التلفزيون عندما أنشدناها في القاعة الكبرى لفندق الرشيد الذي كان مقر إقامتنا وقد كان برنامج المهرجان ثرياً بالزيارات إلى عدد من المدن مثل النجف وبابل والمدائن والموصل وقد اغتمت وقت الفراغ للتجول في مختلف أنحاء بغداد والوقوف على كثير من معالمها عندما زرنا العراق لم نكن نعرف عن أحواله السياسية والاجتماعية إلا القليل فوسائل الاتصال الحديثة وقتها لم تكن معروفة لذلك كنا كالمكتشفين لهذا البلد المشرق الذي نعرف أدبه وأعلامه وتاريخه القديم أكثر ممّا نعرف عن بقية المجالات فيه وقد كانت حربه حينذاك نعتبرها قضية قومية لذلك رأينا أنه يجب الوقوف معه دون الاعتبارات الأخرى غير أننا وبعد سنوات قليلة لم نساند غزوه لدولة الكويت وكنا ضدّ العدوان عليه من طرف التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة

ذات صباح طلب منا المرافقون أن لا نغادر الفندق لأن الرئيس - صدام حسين - سيستقبلنا بعد حين فبقينا ننتظر الحافلات الخاصة التي حملتنا إلى أحد القصور الرئاسية فمكثنا فيه قليلاً ننتظر الرئيس في إحدى الصالات الكبيرة وما هي إلا برهة قصيرة حتى أعادونا إلى الحافلات فأصابنا شيء من الغرابة والتساؤل وقصدنا قصرًا رئاسياً آخر سرعان ما أطلّ الرئيس علينا من باب جانبيّ وهو بزيّه العسكريّ والمسدّس على يمينه فوقف مرحباً بنا وقال كلمة وجيزة موضوعها أن رجال الفكر والثقافة والفنّ هم في طليعة الأمم للذود عن قيمها وكيانها وهي كلمة منتظرة منه في مثل ذلك الظرف التاريخي ولا شك أن المهرجان كان يهدف إلى دعوة أصحاب القلم لمناصرة العراق ثمّ صافحنا واحداً واحداً معبّراً لنا عن شكره وتقديره لقبول الدعوة

المرة الثانية التي لقيت فيها صدام حسين كانت بمناسبة دعوتي إلى المشاركة في مهرجان المرصد أظن سنة 1986 فدعينا على الصباح الباكر إلى قصر المؤتمرات وكنت برفقة الأستاذ محمد العروسي المطوي الذي جلست إلى جانبه في الصفوف الأولى وقد ألقى صدام حسين حينذاك خطابه الشهير الذي أعلن فيه عن امتلاك العراق لسلاح خطير يتمثل في قنابل قويّة الفاعليّة وأمر بإحضار واحدة أو اثنتين منها وظلّ يراوح بوحدة بين

يديه قائلاً مازحاً أن لا نخشى من انفجرتها فوق الحاضرون هاتفين بحماس عندئذ
همس سي العروسي في أذني متعجباً من صدام حسين كيف يكشف سرّ سلاحه !
يا حسرتاه على العراق !

بلد زاخر بالخيرات والحضرات وثري بالتنوع الثقافي
يا حسرتاه على العراق !

ذاك العراق كان يمكن أن يكون ضمن البلدان المتقدّمة الراقية لولا الصراعات الداخلية
والحروب التي وجد نفسه في أتونها وكذلك لولا مُعضلة الإنفواد بالحكم التي أصابته....
إنّ قصيّة الإنفواد بالسلطة والتعصّب بالوأي والإعتماد على روابط القربى هي أساس المصائب
الكبرى لدى العرب من سالف العصور إلى اليوم !!

من غرائب المُصادفات

تلقيت في الأيام الأخيرة رسالة عن طريق بريدي الألكترونية من جامعة مدينة نانسي
في شمال غربي فرنسا يسألني أحد الباحثين فيهان بعد أن إطلع على ديواني Nancy
المنشور في موقعي من أين أستنبط قصائدي أمّن واقع الأحداث أمّ من الخيال ؟ لأنه بصدد
إنجاز بحث جامعي

فأجبت أنني أستوحي قصائدي من الواقع والخيال معاً
ظننت أن الأمر انتهى وتمنيت له التوفيق والنجاح لكنني فوجئت بسؤال عن قصيدة قصيرة
كيف جاءني فكرة كتابتها لأنها تتطابق مع حادثة وقعت لبعض الأطفال في الجنوب التونسي
بمنطقة - قصر الحداد - من معتمدية غمراسن التي أنتسب إليها حيث انفجر على ذلك الطفل
لغم أو قنبلة من مخلفات الحرب العالمية الثانية وفقد إحدى يديه مع بصره والقصيدة حسب
الباحث تبدو مستوحاة من هذه الواقعة

حينذاك فقط تذكّرت أن أحد أقاربي فعلاً قد انفجرت عليه إحدى قنابل الحرب وقد كان يزورنا
في ربوعنا ببئر الكرمة القريب من منطقة قصر الحدادة وقريبي هذا هو ابنُ ابنة عمّ جدّي وقد
كان يزورنا معها في بعض المناسبات إبان عهد طفولتي في الجنوب
كيف ربط هذا البحث في تلك الجامعة بين قصيدتي وبين تلك الحادثة التي وقعت لقريبي
في سنوات الحرب العالمية الثانية ؟

وكيف ظلت يد ذلك القريب راسخةً راسبةً في ذاكرتي وطفحت دون أن أشعر في قصيدتي ؟
ثمّ لم أتذكرها إلا بمناسبة هذا الإستفسار ؟

هذه مسائل أتركها للمختصين ولكني أظن أن واقعة انفجار القنبلة أو اللغم على قريبي موثقة في بعض السجلات الخاصة في الأرشيف الفرنسي ضمن ضحايا الحرب العالمية الثانية وجرحاها في تونس
إن مثل هذه البحوث تتطلب الصبر والمثابرة والدقة والإحاطة بكثير من الجوانب وتؤكد أن النص المنشور ولو كان قصيدة قصيرة يمكن أن يكون مصدرا لبحوث عميقة ومتنوعة التاريخ قد يُهمل لكنه لا ينسى.. لذاك سأظل أكتب على الحوت وألقي به في البحر...كما يقول المثل التونسي

Bonjour,

Je vous remercie énormément pour votre réponse. Je réalise un mémoire sur un livre d'Ibn Jazzar et en ce sens j'ai aussi étudié la Tunisie et particulièrement le Sud, je cherche à comprendre la vie des habitants dans leur histoire. J'ai récolté un témoignage dans un village du Ksar Haddada sur un triste événement survenu à un enfant dans les années 40 ayant perdu une main et la vue suite à un accident du à une grenade ou mine. Je m'interrogeais ainsi si il y avait un quelconque lien entre votre poème « la poignée de main » et cet événement.

Je vous remercie.

Très cordialement

المُصَافِحَةُ
أربعينَ عاماً... لم نلتق
بالأحضانِ عانقني
أمهراًم كان في البلد
مرة... أصاب عصفورين
بحجر... أحد
كيف صدق
أن ذاك الولد
لعب يوماً بلعبة من بقايا الحرب
فصار
يُصافح... بلا يد

من مجموعتي الشعرية - نبع واحد لضفاف شتى - الديوان - *

السبعون... أو في بلاد الدينصور

سنة في سنة يا سنوات
هذه السبعون لاحت

كَيْفَ مَرَّتْ سِنَوَاتُ
ذِكْرِيَاتِي تَتَوَالِي
لِحَظَاتِ لِحَظَاتٍ
لَكَانِي الْمَانَ طِفْلٌ
تِلْكَ أُخْتِي
بِعُرُوسٍ مِنْ قُمَاشٍ
أُرْكَبْنَهَا هُوْدَجًا عُوْدَ قَصَبٍ
بَاهَا زِيحُ الْغِنَاءِ
هَذِهِ تَنِي
وَالصَّدى تِلْوُ الصَّدى
شَقَّ الْمَدَى
زَغْرَدَاتُ زَغْرَدَاتٍ

سَنَوَاتُ سَنَوَاتٍ
عَلَّانَا وَالْحَوْشُ رَحْبٌ
فِيهِ أَوْلَى الْخَطَوَاتِ
عَثْرَاتُ عَثْرَاتٍ
كَمْ سَقَطْنَا
وَنَهَضْنَا
وَسَقَطْنَا
فَوَقَفْنَا
ثُمَّ سِرْنَا
فَأَمَامَ
وَأَمَامَ.. وَأَمَامَ
وَعَلَى الشَّوْكِ الْقَدَمِ
أَوْ حُفْرٍ
لَا نُبَالِي بِالْخَطَرِ
وَعَلَى حَادِّ الصُّخُورِ
كَمْ حُفَاةً قَدْ جَرِينَا
وَإِذَا الْأَقْدَامُ سَالَتْ بِالدَّمَاءِ
فَبِشِيحٍ وَيَرْمَلُ نَنْدَاوِي
مِنْ أَعَالٍ كَمْ قَفَرْنَا
فَانْحَدَسْنَا وَانْكَسَرْنَا وَانْجَبَرْنَا
وَأَعَدْنَا الْقَفَرَ دَوْمًا
بَسْرُورُ
كَمْ قَطَعْنَاهَا الْبَرَارِي
وَسَلَكْنَاهَا الْبُؤَادِي
فِي دُرُوبٍ وَدُرُوبٍ
وَتَسَلَقْنَا الْجِبَالَ

فَعَجِبْنَا مِنْ رُسُومِ
لِغَزَالِ
وَلِفَيْلِ
فِي كُهُوفِ وَمَعَاوِرِ
وَعَجِبْنَا
مِنْ حُطُوطِ وَنُقُوشِ
لَأَيَّامِ
بِقُرُونِ مِثْلِ أَغْصَانِ الشَّجَرِ
وَلِصَيَادِ بَسْمِهِمْ وَرِمَاحِ
بَيْنَ عُشْبٍ يَتَخَفَى
وَعَجِبْنَا مِنْ رِجَالِ وَنِسَاءِ
كَالْعُرَاةِ
فَضَحِكُنَا
مَا عَلِمْنَا وَقْتِذَاكَ
أَنَّ عَصْرًا مِنْ زَمَانٍ قَدْ مَضَى
كَانَ... قَدْ كَانَ إِخْضِرًّا
وَبِعَابَاتٍ تَوَالَتْ فِي الْمَدَى
وَشِعَابِ سَامِقَاتِ
وَسُيُولِ كَالْعَرَمَرَمِ
ثُمَّ جَفَّتْ
يَا جَنُوبًا صَارَ قَفْرًا فِي قِفَارِ
مَا عَلِمْنَا وَقْتِذَاكَ
أَنَّ فِي هَذَا الْجَنُوبِ
كَانَ عَاشَ الدَّيْنُصُورُ
مُنْذُ أَحْقَابِ الزَّمَانِ
فَخُطَانَا - يَا عَجَبًا -
وَطَأَتْ أَوْ شَابَهَتْ مِنْهُ الْخُطَى
كَمْ عُصُورٍ قَدْ تَوَالَتْ وَعُصُورُ
يَا زَمَانًا قَدْ مَضَى
سِنَوَاتِ سِنَوَاتِ

سِنَوَاتِ سِنَوَاتِ
بِئْرُنَا وَالِدَلُ فِيهَا
فِي نُزُولِ وَصُعُودِ
وَالثَّقُوبِ
قَطْرَاتِ قَطْرَاتِ
كَمْ سَقَيْنَا مِنْ شِيَاهِ فِي الْحِيَاضِ
وَحَلَبْنَا بِالْأَيْدِي
لَبْنَا مِثْلَهُ شَهْدُ

كَمْ مَلَأْنَا مِنْ دِلَائِلِ الرُّعَاةِ
ثُمَّ سَارُوا فِي الْفِيَا فِي
بِسْوَيقِ وَتُمْوَرِ
فِي الْمَخَالِي
مِرْوَدُ الْمَاءِ رَفِيقُ وَالسَّرَابِ

سَنَوَاتُ سَنَوَاتِ
كَمْ كِلَابٍ نَهَشْتُنَا
كَمْ أَفَاعٍ لَدَغْتُنَا
فَشْفِينَا وَنَسِينَا
سَنَوَاتُ سَنَوَاتِ
كَمْ عَجَنَّا الطِّينَ خَيْلًا صَافِنَاتِ
عَادِيَاتِ صَاحِحَاتِ
وَعَلَى الْكُتْبَانِ رَاحَتِ
سَابِقَاتِ
فَإِذَا كَلَّتِ
إِسْتَرَحْنَا
وَجَلَسْنَا فِي الظَّلَالِ
لَا نُبَالِي
كَمْ شَدَدْنَا مِنْ حِبَالِ
لِللرَّاجِحِ
فِي صَبَاحِ أَوْ مَسَاءِ
فَتَرَانَا فِي الْأَعَالِي
بَيْنَ أَغْصَانِ وَرِيحِ
لَكَأَنَّ قَدْ صَعِدْنَا بِجَنَاحِ وَجَنَاحِ
فِي الْفِضَاءِ

سَنَوَاتُ سَنَوَاتِ
كَمْ بَنِينَا مِنْ صُخُورِ عَرَبَاتِ
بِسُقُوفِ مِنْ جَرِيدِ
مِقْوَدٍ كَانَ خَشْبِ
وَالغَرَامِيلُ عُلْبِ
كَمْ بِلَادٍ وَبِلَادٍ أَوْصَلْتُنَا
طُرُقَاتِ طُرُقَاتِ
وَتَدْوُرُ الْعَجَلَاتِ
دَوْرَانَ السَّنَوَاتِ

سَنَوَاتُ سَنَوَاتِ
سَنَةٌ فِي سَنَةٍ حَتَّى بَلَغْتُ السَّادِسَةَ
ذَاكَ فَجَرُّ

لَا حُ نُورًا وَجْهَ أُمِّي
مِثْلَ شَمْسٍ فِي شُرُوقِ
رَجُلًا أَصْبَحَتْ قَالَتْ
كُنْ كَذِيبٌ عِنْدَمَا تَلْقَى الذَّنَابَ
جَمَلًا كُنْ عِنْدَمَا تَلْقَى الصَّعَابَ
وَرَنْتَ لِي مِنْ بَعِيدٍ
فِي الْتِيَاغِ
تِلْكَ أُمِّي
دَمَعَاتٍ كَفَكَفَتْهَا
لَمَعَتْ مِثْلَ اللَّالِي
وَأَشَارَتْ بِالْوَدَاعِ
لَكَأَنِّي بَعْدَ أُمِّي
سِرْتُ وَخُدِي فِي ضِيَاغِ

سَنَوَاتُ سَنَوَاتٍ
كَمْ زَهَوْنَا فِي نَجَاحِ هَانِيئِينَ
وَضَحِكُنَا
ضَحَكَاتٍ ضَحَكَاتٍ
كَمْ رَسَبْنَا فِي إِمْتِحَانِ
أَهْ مِنْ دَرَسِ الْحِسَابِ
فَمَعَ الصَّفْرُ الْعَقَابِ
يَا عَصَا رُدِّي صِبَانَا
وَأَعِيدِيهِ الزَّمَانَ
لَا نُبَالِي
رَغْمَ وَجْعِ الصَّرْبَاتِ
صَّرْبَاتٍ صَّرْبَاتٍ

سَنَوَاتُ سَنَوَاتٍ
قَدْ مَشِينَا
طُرُقَاتٍ طُرُقَاتٍ
وَتَعَبِينَا...إِسْتَرْحُنَا
إِنْتَصَرْنَا...إِنْهَزْمْنَا
وَبَكَيْنَا الْحَسْرَاتِ
دَمَعَاتٍ دَمَعَاتٍ
وَرَسْمَنَا
وَمَحُونَا
مَا إِزْتَكَبْنَا فِي الزَّوَايَا
مِنْ خَطَايَا
وَطَوِينَا الصَّفْحَاتِ

ذكرياتٍ ذكرياتٍ

أَبْصَرْتُني صَفْحَةُ المِوَاةِ ضَاءَتْ
فَاجَأْتَنِي بِمَشِيبي

لا أَبالي

كُلُّ شَيْبَاتِي فَصَائِدٌ
وَحَكَايَا

وَإِنْتِظَارٌ

فَأَكْتُبُهَا وَأُنْشِرُهَا يَا مَرَايَا

فِي مَحَطَّاتِ القِطَارِ

فَحَيَاتِي كَكِتَابٍ

بِسُطُورٍ مِنْ سَحَابٍ

هَطَلَتْ أَمْطَارَ حَبْرٍ

صَارَ بَحْرًا

فَكَتَبْتُ الكَلِمَاتِ

إِنَّمَا العُمُرُ حِكَايَهُ

بِبَدَايِهِ

وِنَهَايِهِ

هَذِهِ السَّبْعُونَ حَلَّتْ

فَيَطُولُ وَبِعَرَضٍ قَدْ مَلَأْنَا الصَّفْحَاتِ

صَفْحَاتِ صَفْحَاتِ

كَيْفَ مَرَّتْ سَنَوَاتُ ؟

ذِكْرِيَاتُ ذِكْرِيَاتِ

وَأَعُدُّ السَّنَوَاتِ

سَنَوَاتِ

سَنَوَاتِ

سَنَوَاتِ

— سُوفَ عبيد —

من مواليد موسم حصاد 1952 وسُجِّلَ في دفتر شيخ المنطقة بتاريخ يوم 7 أوت
1952 بئر الكرامة في بلد عُمراسن بالجنوب التونسي

تخرّج من كلية الآداب بتونس بشهادة - أستاذية الآداب العربية - ثمّ في سنة 1976 *
بشهادة - الكفاءة في البحث - حول - تفسير الإمام ابن عَزَقَة - سنة 1979
بدأ النّشر منذ 1970 في الجرائد والمجلات منها : الصّباح - الملحق الثقافي لجريدة
العمل - الصّدى - الفكر - أَلِف - الحياة الثقافية - الموقف - الشّعب - الرّأي - الأيام -
الشّرق الأوسط - القدس... وبمواقع - دروب - إنانا - المثقّف - أنفاس - أوتار - أَلِف -
قاب قوسين -

شارك في التّوادي والتّدوات الثقافية بتونس وخارجها : ليبيا - الجزائر - المغرب - مصر
- العربية السعودية - الأردن - سوريا - العراق - إسبانيا - فرنسا - إيطاليا - ألمانيا -
بلجيكا - هولندا - اليونان -

من مؤسّسي نادي الشّعْر بدار الثقافة - ابن خلدون - بتونس سنة 1974 وإنضمّ إلى
إِتّحاد الكتاب التونسيين سنة 1980 وأُنتخِبَ في هيئته المديرية في دورة سنة 1990
كاتبا عاما ثمّ في دورة سنة 2000 نائب رئيس فساهم في تنظيم مؤتمر إِتّحاد الأدباء
العرب ومهرجان الشعر العربي بتونس سنة 1991 وفي إصدار مجلة - المسار - وفي
تأسيس فروعه وفي تنظيم عديد الندوات والمهرجانات الأدبية وشارك في الهيئة
الإستشارية لمجلة الحياة الثقافية وأسّس منتدى أدب التلاميذ سنة 1990 الذي تواصل
سنويا في كامل أنحاء البلاد إلى سنة 2010 ونظّم الملتقى الأوّل والثاني لأدباء
الأنترنت بتونس سنتي 2009 و 2010 بالمكتبة الجهوية بمدينة ينغروس وترأس
جمعية ابن عرفة الثقافية سنة 2013 وأسّس جمعية مهرجان الياسمين بمدينة رادس
سنة 2018

• صدر له

- الأرض عطشى - 1980
- نوّارة الملح - 1984
- إمراة الفُسيّساء - 1985
- صديد الرّوح - 1989
- جناح خارج السرب - 1991
- نبغّ واحد لضفاف شتّى - 1999
- عُمرّ واحد لا يكفي - 2004
- حارق البحر - نشر إلكتروني عن دار إنانا - 2008
- ثم صدر عن دار اليمامة بتونس - 2013
- الجازية - بترجمة حمادي بالحاج - 2008 - AL JAZIA
- ألوان على كلمات - بلوحات عثمان بّبة و ترجمته - طبعة محدودة - 2008
- حركات الشّعْر الجديد - دار الحرّيّة - تونس - 2008
- صفحات من كتاب الوجود - القصائد النثرية للشّابي - بيت الحكمة - تونس
- 2009
- قصائد مختارة ترجمها عبد المجيد يوسف - oxyde L'âme 2015 -

- ديوان سُوف عبيد - عن دار الإتحاد للنشر والتوزيع تونس 2017
- الضفّة الثالثة - قبسات من الشُّعر التونسي والعربي - عن دار الإتحاد للنشر والتوزيع
- تونس 2019